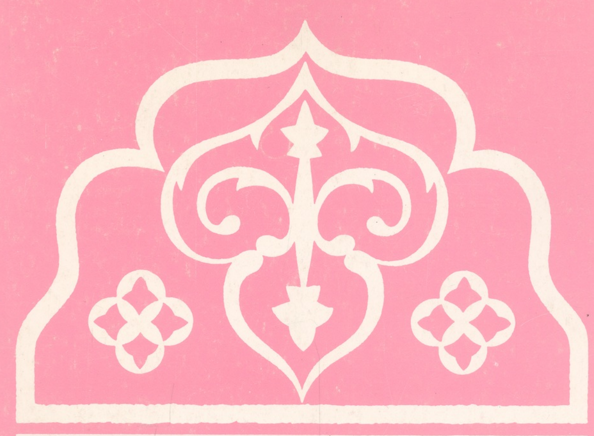


فايز سارة

معالم إنسانيّة من المشرق العربي

قضايا وحوارات النهضة العربية «٢٤»

الإشراف الفني :

زهير الحمو

الخطـوط :

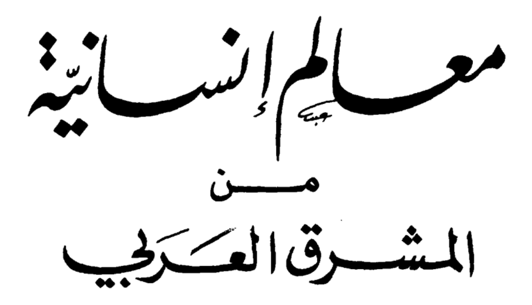
عبد الرزاق قصيباتي

معالم انسانية من المشرق العربي

قضايا وحوارات النهضة العربية

« ٢٤ »

فايز سارة



منشورات وزارة الثقافة
في الجمهورية العربية السورية
دمشق ١٩٩٦

معالم انسانية من المشرق العربي / فايز سارة . - دمشق: وزارة الثقافة، ١٩٩٦ . - ٢١٢ص ؛ ٢٤سم . - (قضايا وحوارات النهضة العربية؛ ٢٤).

١- ٩٢٠ ع س ا ر م ٢- العنوان ٣- سارة
٤- السلسلة

مكتبة الأسد

الايداع القانوني : ع - ٢٥٥/ ٣/ ١٩٩٦

الاهـداء

الى......

الذين كانوا على الدوام

يضيئون لهذه الامة دروبها،

ويحاولون النهوض بها، بعلمهم

ومعرفتهم وممارستهم... بكل معانيها الحضارية

هذا الكتاب وفاء لكم

الى جميل حتمل....

وقد رحل مبكراً

فايز

المحتويات

مقدمة

عندما يطل واحد منا متفحصاً التاريخ الحديث والمعاصر للمشرق العربي، فإن قائمة طويلة من الأسماء تبرز للعيان. قائمة يمتد زمن الذين تحتويهم الى قرن مضى، بينهم رجال دين وعلم ومعرفة، وآخرين من المفكرين والسياسيين والكتاب والعسكريين، طراز واحد من النخبة الذين اهتموا بالشأن العام، وانخرطوا في متابعة تطوراته على تعدديتها واتساعها وتنوع محتوياتها، وإن تفاوت مستوياتهم.

تلك القائمة من الأسماء تركت في حياتنا العامة - والخاصة للبعض منا - أثراً واضحاً، بل إنها ذهبت في أحيان أخرى الى تجاوز الجغرافيا المحلية أو الاقليمية، الى ماهو أبعد من ذلك، الى ساحة العالم على رحابته واتساعه، فتركت في حيز ما بصمة أو بعض بصمة لنا الحق في أن نراها مهمة أو مؤثرة على نحو ما، لأننا جزء من هذا العالم سواء رضي الآخرون أو كرهوا، فالأمر في كل الأحوال لاتقرره إرادتهم وقرارتهم التي تحاول أن تجعلنا كماً مهماً وهامشياً لا فاعلية له ولا أمل يرتجى منه.

قائمة الأسماء الطويلة، تضم كثيرين، ومن هذه القائمة، كانت فكرة اختيار بعض الأسماء لقديمها في «معالم إنسانية» من المشرق العربي في محاولة لإحياء ذاكرة الماضي من أجل المستقبل، نتذكر بعض الذين عاشوا بيننا حتى وقت قريب، أو عاشوا مع جيل الآباء، وحاولوا أن يرفعوا

شأن هذه البقعة من بلاد العرب كل وفقاً لثقافته وقدراتـه وامكانياتـه التـي برزت في هذا الجانب أو ذاك في وقت كانت فيه الأمة تحـاول الخـروج من ظلمات العهـد العثمـاني الـى نـور الحضـارة والعقـل كمـا قـدّره رواد «عصر النهضة العربيـة» فـي أواخـر القـرن التاسـع عشـر وبدايـات القـرن العشرين.

ورغم أن مشروع النهضة العربية والانتقال الى طور أرقى في الحيـاة، والمساهمة الأوسع في الحضارة الانسانية قد أصابـه الفشـل، ولـم يحقـق نجاحات مهمة، فإن ذلك لايدفعنـا الـى نسيان أو تناسـي ماقدمـه هـؤلاء الـرواد والمبـادرين، بـل أن الأمـر علـى عكـس ذلـك تمامـاً، إذ علينـا أن نستذكره، ونستحضر سيرتهم وأعمالهم لتكون حافزاً ودرساً نتحـدى مـن خلاله واقعنا بمعطياته ونحاول صياغة المستقبل فـي العـودة الـى الذاكـرة بمافيها من مخزون تراثي – معرفي وإنساني قريب.

ومنذ التماعة فكرة «معالم إنسانية» برزت صعوبة الاختيار، والطريقة المثلى للتعامل مع الموضوع بكل اشكالياته وتعقيداته، لكن سـرعان مـاتم اعتماد طريقة مبسطة، وهي انتقائية غير مقصـودة للأسـماء والموضوعـات التي تمثلها، وهكذا كـان فتـم اختيـار الأسـماء مـن بلـدان سـوريا ولبنـان وفلسطين والأردن، باختصار «سـوريا» بحدودهـا الطبيعيـة أو علـى نحـو ماكـانت عليه قبـل مائـة عـام مضـت، وتوزعـت الأسـماء علـى مختلـف الأنشطة فكان اختيارنـا علـى نحـو مافصلنـا سـابقاً «رجـال ديـن ومعرفـة وآخرين من المفكرين والسياسيين والكتاب والعسكريين..».

وكـان مـن الصعـب أن نكتـب مفصـلاً عـن كـل واحـدة مـن تلـك الشـخصيات ومعظمهـا يسـتحق دراسـات معمقـة، بـل إن بعضهـا كـان موضوعاً لهكذا أعمال وقد صدرت حولهم كتب ورسائل أعدها بـاحثون وأسـاتذة جامعـات ومراكـز وأبحـاث. ولأن الهـدف الـذي شـغلنا فـي الموضوع كان مختلفاً، فقد جاءت كتاباتنا عـن تلـك الشـخصيات على نحو ماسيجدها القارىء، مختصرة ومكثفة، إذ هي تتناول مختصر السـيرة الذاتيـة وبعـض العوامـل الأساسيةالمؤثرة فيهـا وفـي التوجيهـات الرئيسـة لصاحب الشخصية موضوع المقال، وبعدها كانت محاولـة إبـراز جـانب مهم أو مغمور من حياة الشخص المعنى أو نشاطاته، أو هـو تـأكيد علـى هذا الجـانب الـذي يسـتحق الابـراز بحكـم معطيـات موضوعيـة يعيشـها المشرق العربي، بل كل الواقع العربي في مشرقه ومغربه على السواء.

وبالمعنى الذي تقدم، فإن من مهمة هذه المقالات أن تقدم تعريفاً أو لنقل مفتاحاً لهذه «المعالم الانسانية» يحاول من خلالها الذيـن لايعرفـون تلـك الشـخصيات والراغبـون فـي الدخـول الـى عـالم تلـك الشـخصيات ومحيطها التعرف عليهـا، وفـي الجهـة الأخـرى، فـإن الذيـن عرفـوا تلـك الشخصيات بما عايشوها أو تداولوه عنها من كتابات يجدون شيئاً مكثفـاً وربما جديداً عنها.

وإذا تم تحقيق واحدة مـن مهمتـي هـذه المقـالات فهـو أمـر حسـن والأحسن منه تحقيق الاثنتين معاً، وإلا فإن المحاولـة بحـد ذاتهـا تسـتحق عناء الكتابة عن أسماء لمعت في تاريخنا الحديث والمعاصر.

وإذا كانت المقالات التي يحتويها الكتاب، مكتوبة بلغة تعكس طابع الحب والمودة نحو «المعالم الانسانية» التي تم اختيارها من المشرق العربي، فإن ذلك لايعني انحيازاً عاطفياً لهذه المعالم، التي تم التدقيق والمقارنة في المعطيات الواقعية لحياتها، حتى تأتي الكتابة موضوعية رغم حرارتها ووديتها، وهو أمر شغل حيزاً واضحاً في مقالة «الذين ينسلون من أرواحنا» وتم وضعه على صورة تمهيداً للدخول في عالم «معالم إنسانية».

وبعد نهاية المقالات، تم إثبات مجموعتين من المصادر والمراجع: «القسم العام» و «القسم الخاص» بحيث يمكن لمن رغب في العودة الى تفاصيل بصدد الشخصيات الوارد عنها مقالات في الكتاب، أن يحصل على المزيد من المعلومات، وفي ذلك يكون ثمة فائدة ضمنية يحتاجها البعض.. في كل الأحوال ثمة أمنية عزيزة، وهي أن يجد القارىء فائدة معرفية - ثقافية، بما تتضمنه مقالات هذا الكتاب..

دمشق نيسان (ابريل) 1995

فايز سارة

الذين ينسلون من أرواحنا

تمهيد:

قبل مدة قليلة، رحل جلال السيد، والرجل لمن لايعرفه، أو لايذكره شخصية سياسية واجتماعية سورية ذات اتجاه قومي، كان أحد الذين وقادوا حزب البعث العربي في الأربعينات، بل يمكن القول أنه كان الوجه البرلماني الأول الذي طرح اسم الحزب تحت قبة البرلمان السوري، حيث كان عضواً فيه ممثلاً عن منطقة دير الزور، وقد استمر في الحزب سنوات، ولكنه انسحب عندما اختلف مع رفقائه في القيادة وبخاصة في موضوع الاشتراكية التي لم يوافقهم عليه جلال السيد، فآثر مغادرة الحزب والعيش خارج الحياة الحزبية.

وقبل رحيل جلال السيد بوقت قصير رحل بشير العظمة، وهو كالراحل سابقه شخصية سياسية واجتماعية سورية عربية الاتجاه والهوى، زاوج بين الطب والسياسة، فكان وزيراً للصحة في فترة من الزمن أثناء الوحدة السورية - المصرية، ثم صار رئيساً للوزارة السورية في وقت ما، إبان أيام الانفصال في سوريا، وبعدها اعتزل الحياة السياسية، متفرغاً لمهنته وشؤونه اليومية والعائلية.

وقبل الاثنين توفي منير الريس مجاهد وصحافي سوري من أصحاب الهم العروبي عاش شبابه متنقلاً في شعاب ثورات سوريا المسلحة ضد

الانتداب الفرنسي، ثم انتقل ليعمل في الصحافة وخلالها اشترك في ثورة فلسطين، وغادر سوريا الى العراق ليقف الى جانب حكومة رشيد عالي الكيلاني في الأربعينات، وتابع حياته شعلة متقدة من النشاط والحيوية، لم يقعده سوى السن والمرض عن الاستمرار بحياته، فاتكأ الى فراشه منتظراً سنوات قبل أن يغادرنا.

ثلاثة رحلوا تباعاً وكانوا سوريين جغرافياً، مثل مواطنهم الياس مرقص الكاتب والمفكر من طراز رفيع والمترجم ورجل السياسة الذي توفي قبل سنوات اثر مرض عضال، دون أن يتيح لنا الانشغال بكارثة الخليج مجرد تذكر اسمه في ذلك المكان.

وبين رحيل الثلاثة ورحيل الياس مرقص، رحل من أقطارنا العربية كثير من الشخصيات انتمت الى جيل هؤلاء والى مراتبهم واهتماماتهم، فقد رحل الفلسطيني عبد المحسن أبو ميزر وهو الغني عن التعريف، ورحل الفنان المبدع والمثقف اللبناني، نزار مروة المتواضع كوالده الرحل حسين مروة وكذلك فعلها محمود رياض أحد أبرز وجوه السياسة والدبلوماسية العربية في نصف قرن مضى، وكذلك غادرنا فؤاد مرسي الاقتصادي ورجل السياسة المصري المعروف، وتوفي الكاتب ياسين الروائي والكاتب الجزائري ومثيله العراقي غائب طعمة فرمان الذي عاش حياته في المنفى بعيداً عن وطنه العراق المبني حجراً فوق حجر داخل القلب المتعب.

مجموعة من الوجوه غادرتنا في وقت قصير، لم يتجاوز العامين، نخبة من المختلفين في أعمارهم واهتماماتهم وابداعاتهم وفي أساليب

حياتهم، وقبل ذلك كله من المختلفين في انتماءاتهم الايدلوجية والفكرية وولاءاتهم ومشاربهم السياسية.

جاء كل واحد منهم من بيئة ووسط اجتماعي وثقافي معين، ثم انتمى الى مدرسة ايديولوجية وسياسية ما، وقرأ كتباً، واعتمد مهنة، وعاش بطريقة تختلف، فأحب وكره، ونام بصورة قد لاتجمعه مع الآخرين، أو تجعله قريباً منهم وقدد نكون من بين الآخرين هؤلاء، أو لانكون، ولكن المهم أننا أحسسنا بهؤلاء وقد رحلوا من حياتنا.

ربما كان احساسنا بهم بسبب ذلك الاختلاف، ولعله بسبب التوافق، ولكن الأهم - وبغض النظر عن الاختلاف أو الاتفاق - فإن احساسنا بغياب هؤلاء له صلة بما مثله هؤلاء من علاقة ماضينا، وما كرسوه في حياتنا من تجارب إنسانية وإبداعية وفكرية، وربما سياسية عاشت في أرواحنا ونفوسنا أو جعلتنا ناخذ اتجاهات ومسارات معينة، وبإختصار فقد ترك هؤلاء بصمات في حياتنا الشخصية، وربما في الأبعد منها في حياتنا الاجتماعية والانسانية، وعلى قاعدتي الاتفاق والاختلاف في آن معاً، ولذلك أحسسنا برحيلهم.

رحيل هؤلاء في وقت بدونا بحاجة اليهم أكثر من أي وقت مضى، بحاجة الى ذلك الرجل الذي يعترض وقد افتقد نفسه ورأيه في حزبه وفي وسط رفقائه، فغادر موقع الزعامة غير مكترث بما سيؤول اليه الحال، وبحاجة الى الانسان الذي تحدت انسانيته منصبه الحكومي، عنندما شعر أنه لايمكن أن يفعل مايراه مناسباً في سلم اختصاصه واهتمامه، فغادر منصبه في الوزارة لايلوي على شيء. وبحاجة الى ذلك الرجل الذي رأى

منكراً كرسه الواقع، فحاول تغييره بيده، ثم بقلمه ثم بلسانه، ولم يمل حتى أقعده الكبر والمرض.

. ومؤكدة حاجتنا الى المثقف الكبير والمفكر الذي يلقي أحجاره في حياتنا الراكدة التي أسنت، ويثير بصورة دائمة، الاشكاليات التي تشحذ التفكير فيما حولنا من ظواهر وأفكار وآراء قد توافقنا، وقد لاتعجبنا، والى فنان يحاول أن يقدم مايغذي الروح فينا وقد قارب الموت على أعتاب الاستهلاك سواء العاصف منه أو الرتيب سيان، وبحاجة الى الذي يغادر وطنه الى المنفى ولا يقطع الجذور والصلات الحميمة حاملاً صورة الحوارى والأشجار ولون السماء ولمعان شمس المغيب وانعكاساتها على مياه البحر وشواطىء الرمال.. وبحاجة الى ذلك السياسي والاقتصادي الذي يرى المتغيرات تعصف بالحياة من حوله، ولكنه لايفقد القدرة على التأمل واستقرار المستقبل والتعامل معه.

نعم نحن بحاجة الى كل هؤلاء، لكننا لانقف على الأطلال ونبكي، بل نتطلع الى الحياة، نتطلع اليها دون أن نحس أن شيئاً ما ينسل من أرواحنا، وأنها تموت وتحولنا الى أشياء تستعد للموت.. فمازال في الحياة بقية، بل أن الحياة باقية، وأن الراحلين تركوا فينا كل ماكانوا عليه برغم تعدديته واختلافه أو اتفاقه معنا..

ابراهيم هنانو: والثورة المسلحة

ينتسب ابراهيم هنانو الى تلك النخبة من رجالات الحركة القومية العربية التي نهضت لمواجهة استحقاقات التطور السياسي في بلاد الشام بعيد الحرب العالمية الأولى، وذلك على قاعدة أساسها الحق في تقرير المصير والحياة الحرة للبلاد التي كانت خاضعة لسلطة الأتراك - العثمانيين وفي هذا الاطار مضت تجربة المجاهد ابراهيم هنانو في علاقته بالحركة الوطنية - القومية في بلاد الشام.

بدايات أولى:

وعودة الى بدايات ابراهيم هنانو المولود أواسط النصف الثاني من القرن التاسع عشر، يمكن القول أن تلك البداية تكاد في معطياتها العامة تتشابه مع الكثير من بدايات معاصريه.

فقد ولد هنانو في قرية كفرتخاريم القريبة من حلب عاصمة شمال بلاد الشام، وتلقى تعليمه الأساسي كغيره من أبناء جيله ووسطه الاجتماعي متنقلاً مابين «الكتاب» الى المدرسة الرشدية والاعدادية، وأبدى في مراحل مبكرة من شبابه اهتماماً بالشأن العام، مماجعله محط اهتمام مواطنيه المحيطين، وأعضاء نادي النخبة السياسية الشابة في

الحركة القومية الناهضة نحو مهامها في بلاد الشام عشية التحرر من الحكم التركي ومواجهة استحقاقات مابعد تحر البلاد من السلطة التركية - العثمانية، فصار عضواً في المؤتمر السوري في جلسته الأولى عام ١٩١٩، وهو بمثابة مجلس تمثيلي، يجمع نواباً عن مناطق بلاد الشام.

من العمل السياسي الى الثورة المسلحة:

وفي خلال وجود ابراهيم هنانو في دمشق، ساهم الرجل في الحياة السياسية التي نشطت بعد دخول القوات العربية الى دمشق في ايلول (سبتمبر) ١٩١٨، بقيادة الأمير فيصل بن الحسين، والتي في اطارها جرى تشكيل «المؤتمر السوري» في شباط (فبراير) ١٩١٩، وتنصيب فيصل ملكاً على سوريا.

غير أن التعثر الذي أصاب مساعي الحركة الوطنية - القومية في دمشق من أجل الاستقلال من جهة، وبسبب الخطط الاستعمارية التي كان الفرنسيون والبريطانيون قد رسموها لبلاد المشرق العربي بموجب معاهدة سايكس - بيكو لإقتسام بلاد الشام الى مناطق نفوذ لكل من لندن وباريس من جهة أخرى، جعلت ابراهيم هنانو، يبدل خياراته السياسية بالانتقال الى خيار الثورة المسلحة، ومما لاشك فيه أن هناك عوامل أخرى ساهمت في هذا التحول في استراتيجية الرجل، ولعل من الأبرز في هذه العوامل عدم الاستقرار العام في البلاد، وقيام الثورات المسلحة في العديد من أنحاء سوريا الداخلية، بل وحركات المعارضة المسلحة في المناطق التي كانت القوات الفرنسية قد احتلتها على الساحل السوري وبعض المناطق الغربية منه.

هنانو والثورة المسلحة:

كانت الخطوة الأولى لإبراهيم هنانو في انتقاله من دمشق نحو الشمال، وفي أعقاب اتصالات أولية أجراها في مناطق شمال وشمال غرب سوريا انعقد برعايته في مدينة ادلب اجتماع ضم بعضاً من وجهاء وفعاليات مناطق حلب واسكندرون واللاذقية وجبال العلويين، وبين هؤلاء كان ممثلون عن الثورات المسلحة في تلك المناطق ومنهم مندوبون عن الشيخ صالح العلي قائد ثورة جبال الساحل، وصبحي بركات زعيم ثورة الاسكندرون، وعمر البيطار زعيم الحركة المسلحة في منطقة الحفة باللاذقية، وفي ذلك الاجتماع تم اتخاذ قرار «تنسيق الجهود وتنظيمها، والقيام بعمل موحد ضد القوى الفرنسية والغاشمة التي تحتل البلاد».

والترجمة الحرفية التي شرع فيها ابراهيم هنانو لقرار اجتماع ادلب كانت اعلان الثورة المسلحة في المنطقة مع إقامة تنسيق عالي المستوى بين قوى الثورة في المناطق الغربية من جهة والفعاليات السياسية في مناطق البلاد من جهة ثانية.

وهكذا اندلعت ثورة جبال الزاوية عنيفة قوية، وشملت أنحاء مختلفة من حوض العاصي وحارم وجسر الشغور وادلب.

وفي خطوة أبعد من اعلان «التمرد» العسكري، وبتنسيق مع بعض المفاصل السياسية والعسكرية والفاعلة في حكومة دمشق، سافر هنانو الى تركيا للاتفاق مع الأتراك على تزويد الثورة بالسلاح والذخائر، ومحاولة ضمان تأييد سياسي ومعنوي لها في مواجهة الفرنسيين الذين كان العداء بينهم وبين الأتراك على أشده، بسبب المواجهات العسكرية بين الطرفين

في تركيا، ورحب الزعيم التركي كمال اتاتورك بخطورة هنانو ووعد بتقديم دعم واسع لثورة سورية مسلحة ضد الفرنسيين، وفي إطار هذا الوعد تم توقيع اتفاق السابع من ايلول (سبتمبر) 1920 لتزويد ثورة جبال الزاوية بقيادة هنانو بالسلاح والمعدات دون مقابل.

انتصارات الثورة وتنظيمها:

خاضت قوات الثورة كثيراً من المعارك الناجحة، وحققت انتصارات ملموسة في مناطق مختلفة، ولعل من أهم المعارك التي جرت في مناطق «اوروم الصغرى» و «اسقاط» و «جسر الشغور» و «كفرتخاريم» و «الزاوية» وسقط فيها كثير من الجنود والضباط من القادة الفرنسيين.

ولم يقتصر اهتمام الثورة، وقائدها بالعمل المسلح ضد جنود فرنسا بل امتد ليشمل تنظيم الحياة اليومية في مناطق الثورة ولاسيما احلال الأمن والأمان، وهي حالة كثيراً مايجري تجاوزها في أماكن الثورات المسلحة غير أن اهتمام هنانو وقادته بالموضوع من حيث ضرورته لحماية المحيط الاجتماعي للثورة، جعلت الموضوع في مقدمة الأولويات فتم تأليف جماعات تقوم بعبء الأمن، كما تم تشكيل جهاز اداري مهمته جباية الأموال والضرائب لصالح الثورة وادارة أعمال الحياة في مناطقها في محاولة لإعطاء المزيد من الحضانة لمناطق الثورة، ومنع وصول الأيدي العابثة والمخربة عن النشاط الواسع فيها، وفي الحالات كافة، كان ذلك يعكس مستوى متقدماً لزعيم الثورة في تعامله مع محيط الثورة الانساني والجغرافي.

فشل الاغراءات ونهاية الثورة:

وسط الأجواء التي أشاعتها ثورة هنانو في المنطقة نمت واتسعت مخاوف الفرنسيين، فلجأوا الى ممارسة الترغيب والترهيب وهي سياسة معروفة وشائعة، فحاولوا إغراء هنانو بأنه مقابل إلقاء السلاح، سوف يتم تعيينه حاكماً عاماً على مناطق الثورة، لكن هنانو رفض بصورة حاسمة «مما جعل الفرنسيين يتجهون الى خيارات أخرى غير الاغراء».

وكانت اجراءاتهم في خطين الأول فرض الحصار على الثورة من المناطق السورية المتاخمة لها، وحشد أوسع القوى العسكرية للهجوم على قواعد الثورة المسلحة، والخط الثاني التفاهم بين الأتراك وزعيمهم اتاتورك لوقف أية علاقة لهم مع هنانو وقواته، وقد استجاب الأتراك لذلك، واتخذوا اجراءات حاسمة تفرض من جانبهم الحصار على ثورة هنانو، وجرى ذلك كله وسط حالة انحسار وطني مؤقت في طوال البلاد وعرضها وبعيد معركة ميسلون وسقوط دمشق بأيدي القوات الفرنسية في تموز (يوليو) ١٩٢٠.

ومع بداية ربيع العام ١٩٢١، شن الفرنسيون هجوماً واسعاً ضد مناطق الثورة بعد أن حشدوا نحو عشرين ألفاً من قواتهم تدعمها الطائرات، وتتقدمها المصفحات، ووسط نقص الأسلحة والذخائر في أيدي رجال هنانو، مما أدى الى تراجع الثورة وانكفائها، واضطر قائدها والهيكل الأساسي من رجاله الى الاتجاه نحو الأردن عبر الصحراء، وفي الطريق حصلت معارك قاسية بين رجال الثورة وجماعات نهاية من البدو الرحل.

بعـد انكفـاء الثـورة تنقـل هنـانو بيـن الأردن وفلسـطين، وقـد القـت سلطات الانتـداب البريطـاني القبـض عليـه فـي القـدس وقـامت فـي إطـار سياسـتها الاسـتعمارية بالتنسـيق مـع الفرنسـيين ضـد الجماعـات والرمـوز الوطنية بتسليمه الى سلطات الانتداب في سـوريا، فـأقتيد الرجـل مخفـوراً الى المحاكمة في مدينة حلب، وبفعل عدالـة القضيـة التـي كـان ثـار مـن أجلها والدفاع الذي قدمه مع محاميه أمام المحكمة صدر القرار ببراءته.

تابع هنانو سنوات حياته حتى وفاته في تشرين الثاني (نوفمـبر) 1935 عاملاً بنشاط فـي صفـوف الحركـة الوطنيـة - القوميـة مـن أجـل الحريـة والاستقلاق، وكانت ذكرى الأربعين لوفاته فاتحة الاضراب الستيني الذي اجتاح البلاد عام ١٩٣٦، والخطوة الأولى نحو مفاوضـات عـام ١٩٣٦، و«معاهدة الاستقلال» السورية - الفرنسية.

أحمد قدري: ازدواجية الطب والسياسة

ولد أحمد قدري الترجمان في دمشق عام ١٨٩٣ من عائلة ارستقراطية، وأبوه أحد ضباط الجيش العثماني وتلقى أحمد قدري تعليمه الأساسي متنقلاً في مدارس البلاد الشامية، لا سيما دمشق وبيروت بحكم وظيفة والده التي كانت تتطلب تنقلاً بين هذه المدينة وتلك، وبحكم هذه الوظيفة أتيح له أن يتعرف في سنوات دراسته الأولى، على عدد من الزملاء الذين صاروا بعدها في عداد رجالات الحركة القومية العربية ومنهم محمد رستم حيدر، ورشيد الحسامي، وعوني عبد الهادي، ورفيق التميمي، وعبد الغني العريسي الذين تزامل واياهم مبكراً على نحو ما يذكر في مذكراته عن فترة شبابه الأولى.

الطريق الى النخبة:

وتعززت علاقات أحمد قدري مع أولئك النفر من رجالات العرب إبان متابعة دراسته في الاستانة ثم في باريس التي تخرج طبيباً في جامعتها ومشافيها قبيل الحرب العالمية الأولى، وعاد بعدها ليقيم ويعمل في دمشق.

اتاحت له تنقلاته بين المدن والبلدات الشامية، ولاحقا جولاته

واقامته في العراق والحجاز اضافة الى مصر، وكذلك صلاته الحميمة والوثيقة المبكرة والتي حافظت على تواترها واستمراريتها اللاحقة مع كثير من الشبان العرب، أن يصبح شخصية قومية هي أبعد ما تكون عن الاقليمية والقطرية، مما جعله في آن معا من الرعيل الاول الذي عمل في الحركة القومية العربية سعيا وراء الاهداف الاساسية في الاستقلال واقامة الوحدة العربية.

الولع المبكر بالسياسة:

اعطى الولع المبكر بالسياسة لأحمد قدري بعداً خاصاً لشخصيته السياسية، حيث برز رائداً ومبادراً على نحو ما كان عليه في دراسته وفي تخصصه في دراسة الطب وفي اطار مبادراته السياسية وريادته كان بين الحلقة الضيفة التي ألفت «جمعية العربية الفتاة» في باريس عام ١٩١١ وهي الأهم بين الجمعيات العربية، كما كان أحمد قدري بين النفر المنظم للمؤتمر السوري الأول المنعقد في باريس عام ١٩١٣ والذي وضع أول برنامج استقلال لدولة عربية في المشرق العربي دولة موحدة ترعى نهضة العرب وتوصلهم الى مصاف الأمم الراقية.

وعلى نحو ما كان قدري مولعاً بالسياسة، فقد كان محباً للعلم وللطب بصفة خاصة، فكان مجداً في تحصيله واستيعاب مضامينه فاشتهر بصفته طبيباً سواء في بداية حياته أو في المراحل اللاحقة وقد ساعده اشتغاله بالطب في القيام بمهامه السياسية وأعطاه مكانة مهمة اجتماعياً واداريا جعلته ينجح في القيام بجملة تحركات أبعدت حبل المشنقة عن عنقه وأعناق عدد من أحرار العرب أيام جمال باشا في سوريا ولبنان.

لقد دفعته فرصة نجاته من حكم الاعدام أمام ديوان الحرب في عالية الى العمل بدأب في تنظيم وتنشيط العمل المعادي للأتراك العثمانيين في سياساتهم وممارساتهم في سوريا وكان ذلك يقدم خدمات هامة لقوات الثورة العربية التي أعلنها الشريف حسين بن علي في حزيران (يونيو) ١٩١٦، والتي كان يقودها الأمير فيصل. وقد التحق أحمد قدري بالقوات بعد أن كاد أمر تعامله مع قوات الأمير فيصل ينكشف، فنظم مجموعة من المتطوعين وغادر الشام للقاء الأمير فالتقاه في معان جنوب الأردن.

وبفعل عاملين صار أحمد قدري من أكثر المقربين الى الأمير فيصل، وكان العامل الأول أن فيصل عضو في «الفتاة العربية» وقدري أحد مؤسسي الجمعية وقادتها، والعامل الثاني أن قدري كان طبيباً لامعاً فعينه الأمير طبيباً خاصاً ومستشاراً له وهو ما جعل اقترانهما معا للسنوات التالية التي عاشها فيصل بن الحسين حتى عام ١٩٣٦. وقد رافق أحمد قدري الامير في دخوله دمشق حيث أعلنت الملكية الدستورية تحت حكم الملك فيصل وفقاً لقرار المؤتمر السوري في الثامن من آذار (مارس) ١٩١٩، ورافقه مع عوني عبد الهادي في رحلته الى اوربا للمشاركة في مؤتمر فرساي عام ١٩١٩، ثم رافقه ثانية في سفرته الثانية الى اوربا للعمل من أجل استقلال سوريا.

في مركز القرار:

شهدت سنوات مرافقة قدري لفيصل تناقضات سياسية حادة في أفكار وممارسات أحمد قدري، وهو الرجل الذي اتخذ مواقف مبدئية

متشددة في سعيه وتأييده لاستقلال البلاد ووحدتها، في الوقت عينه كان راغباً في المحافظة على علاقاته وصلاته مع الملك، وكان الأخير أميل الى التفاهم مع الفرنسيين وأقرب الى عقد اتفاقيات «واقعية» كان منها «اتفاق فيصل - كليما نصو» بشأن انتداب فرنسا على سوريا وهو أمر عارضه بقوة أحمد قدري واعضاء الهيئة الادارية لجمعية «العربية الفتاة».

لكن تلك التحولات لم تجعل أحمد قدري خارج اطار الغضبة الاستعمارية الفرنسية على سوريا والسوريين - بالمعنى الواسع للكلمتين - فكان أن أصدر الفرنسيون حكماً بالاعدام على الدكتور قدري مما دفعه الى المغادرة الى المنفى في القاهرة عام ١٩٢٠، ثم أسند له الملك فيصل بعد توليه عرش العراق من قبل البريطانيين مهام القنصل العام للعراق في مصر عام ١٩٣٠، ثم جرى تعيينه في العام ١٩٣٥ في المفوضية العراقية في باريس فأسس المفوضية العراقية هناك وانتقل بعدها الى بغداد ليتولى ادارة الكلية الطبية لمدة عام، عاد بعدها الى دمشق عام ١٩٣٦ لكن المقام لم يطل به فيها.

عاد د. قدري الى دمشق بصورة نهائية عام ١٩٤١ محملاً بخيبة الأمل بعد سقوط ثورة رشيد عالي الكيلاني وهو اقرب الى اعتزال السياسة وأكثر رغبة في حصر اهتماماته ونشاطاته في حقل الخدمة العامة في مجال الطب والصحة وهو ما ميز المرحلة التالية من حياته وأعطاه محتوى مميز في مسيرتها وانجازاتها في عمله طبيباً وادارياً حكومياً خاصة بعد أن تم تعيينه أميناً عاماً لوزارة الصحة والاسعاف العام في ١٩٤٣ فتفتحت طاقاته وكان من نتائجها وضعه جملة من القوانين

والأنظمة الصحية السورية اضافة لاحداث تطويرات هامة في بنية المؤسسات الصحية منها بناء وتوسيع مشافي عامة ومتخصصة في العاصمة ومعظم المحافظات السورية وكذلك مراكز ومستوصفات صحية في المناطق والاقضية.

ومثلما كان لأحمد قدري حضوره في النشاط السياسي العام في بداية حياته صار له حضور علمي في الأنشطة العربية والدولية وفي عداد تلك المساهمات حضوره في أب (اغسطس) ١٩٤٨ المؤتمر الدولي لجمعية الصليب الاحمر ممثلاً لسوريا في مدينة استوكهولم، فلعب دوراً مؤثراً في جعل قضية اللاجئين الفلسطينيين العرب قضية دولية تهم الرأي العام. وكان ذلك أواخر أعماله الهامة قبل احالته الى التقاعد من العمل عام ١٩٤٩، منهياً حياته في الميدان العام بانجازات أخرى تضاف الى سابقتها في الميدان السياسي.

ترك الدكتور قدري ارثاً علمياً وسياسياً توزع ما بين مؤلفين في الطب أحدهما في الأمراض الجلدية وآخر في الأمراض الزهرية الفهما لطلبة كلية الطب في جامعة بغداد، وترك لنا مذكراته عن الثورة العربية الكبرى التي قدمت لنا صورة شاملة وواسعة عن مجريات الحياة العربية في أمصار المشرق العربي إبان فترة الحرب الأولى وماتلاها، وربما كانت مذكراته «عن الثورة العربية الكبرى» هي الصور الأكثر قرباً وواقعية عن تلك الأيام التي عاشها أحمد قدري، وتعايش فيها مع النخبة الفاعلة والرئيسية في الثورة العربية والفاعلة في قراراتها.

أحمد الشقيري محامي العرب
ومؤسس م.ت.ف.

عندما تذكر القضايا العربيــة الرئيسـية وفـي المقدمـة قضيـة فلسـطين يتقدم اسم أحمد الشقيري رجلاً ومحامياً تتداخل في شخصيته الأبعاد فـلا يكـاد المدقـق فـي حياتـه أن يمـيز بيـن عروبتـه التـي تتضمــن فلســطينيته والآخرى التي تكاد تغطي مساحة الوطن العربي ببلدانه جميعا والتـي تبـدأ من الخليج وصولاً الى المحيط ومن طوروس شـمالاً الـى أواسـط افريقيـا جنوباً.

سنوات التكوين الصعبة:

ولد أحمد الشقيري في بلدة تبنين جنوب لبنان عام ١٩٠٨، ووالـده اسعد الشقيري رجل دين وسياسة فلسـطيني تسـلم العديـد مـن المنـاصب العثمانية لكنه لم ينج من غضب الاتراك، وعندما ولد ابنه احمد كان منفيـاً في جنوب لبنان بسبب مناهضته سياسة السلطان عبـد الحميـد، وقـد عـاد بعد خلع الاخير الى فلسطين، ليعيش في طولكرم مع عائلته.

تعلم الصبي أحمد وأنهى تعليمه الأولي في عكا، وتـابع الثـانوي فـي القـدس عـام ١٩٢٦، قبـل أن يغـادر الـى بيروت للدراسـة فـي الجامعـة الامريكية، ومنها طردته سلطات الانتداب الفرنسي لقيادته تظاهرة ضخمـة

بمناسبة ذكرى الشهداء في ٦ أيار (مايو) فعاد الى القدس وانتسب الى معهد الحقوق فيها طالباً الى جانب عمله في صحيفة «مرآة الشرق» وبعد تخرجه في الحقوق، عمل في مكتب المحامي عوني عبد الهادي أحد أبرز رجالات الحركة القومية العربية في فلسطين، ومن خلال ازدواجية العمل في المحاماة والصحافة تعرف أحمد الشقيري الشاب على رجالات سوريا الكبرى وبينهم شكري القوتلي ورياض الصلح ونبيه العظمة وعادل ارسلان.

مناضل من طراز خاص:

وبسبب من امكانياته وتميزه في الخطابة والقانون وقدرته الكتابية فقد كان انخراط الشقيري في النضال الفلسطيني مميزاً، وهذا ما حدد الملامح التالية لشخصية الرجل وعطاءاته.

ومنذ وعيه ثورات فلسطين في العشرينات أخذ أحمد الشقيري يدافع عن المعتقلين الفلسطينيين أمام محاكم الانتداب وبرزت أعماله خلال ثورة فلسطين الكبرى ١٩٣٦ - ١٩٣٩ مما جعل السلطات البريطانية تلاحقه فغادر الى مصر لكنه عاد مع بدايات الحرب العالمية الثانية وفتح مكتباً للمحاماة خصصه للدفاع عن مناهضي الانتداب والصهيونية، ومن أجل الدفاع عن عروبة الارض ومنع انتقال ملكيتها الى المهاجرين اليهود ومنظماتهم.

وتقدمت امكانياته الشخصية والمهنية لتجعله مختاراً للعمل مديراً لمكتب الاعلام العربي في واشنطن، ثم انتقل ليدير المكتب المركزي للاعلام العربي في القدس، وهو العمل الذي مارسه الى جانب المحاماة حتى نكبة ١٩٤٨ حين

غادر مع أسرته الى لبنان، وهناك بدأ فصلاً جديداً من حياته.

في أروقة الدبلوماسية:

انتدبت الحكومة السورية أحمد الشقيري للعمل في بعثتها لدى الأمم المتحدة لسنوات (١٩٤٩- ١٩٥٠) وبعدها جرى تعيينه أميناً عاماً مساعداً للجامعة العربية يحمل الجنسية السورية حيث بقي في هذا المنصب حتى عام ١٩٥٧، عندما طلبته المملكة العربية السعودية من سوريا، وعينته «وزير الدولة لشؤون الأمم المتحدة» وسفيراً دائماً لها في الأمم المتحدة وبقي في هذا المنصب حتى عام ١٩٦٣، حين أعفته الخارجية السعودية من مهامه بسبب خلافة معها وهو أمر استمر في علاقته اللاحقة مع السياسة السعودية مراوحاً بين مد وجزر.

ومن الطبيعي أن لايبتعد الشقيري عن الحياة السياسية العربية بعد كل تراكماته من خبرة ومعرفة وامكانيات، فتم اختياره مندوباً لفلسطين لدى الجامعة العربية عقب وفاة مندوبها السابق أحمد حلمي عبد الباقي، وقد تطور وضع الشقيري بصورة دراماتيكية، إذا كلفته القمة العربية الأولى المنعقدة في الاسكندرية في كانون الثاني (يناير) ١٩٦٤ «اجراء اتصالات» مع الفلسطينيين لإبراز كيان خاص بهم.

خروج الى القيادة:

وفجر قرار القمة العربية الأولى طاقات مختزنة في داخل الشقيري ومحيطه العربي والفلسطيني، وخلال أشهر قليلة ومجموعة محدودة من الجولات العربية واللقاءات الفلسطينية استطاع الرجل أن يخلق كياناً

فلسطينياً مميزاً، قاعدته مشروع الميثاق القومي الفلسطيني المعتبر بمثابة الدستور والحقه تشكيل لجان تحضيرية هيأت لانتخاب «المؤتمر القومي الفلسطيني» وهو ما صار معروفاً بـ«المجلس الوطني الفلسطيني» أو «البرلمان» والذي أدى انعقاده في القدس الى اقرار الميثاق الاساسي لـ«منظمة التحرير الفلسطينية» وعدد من هيئاتها السياسية العسكرية والمالية وجاء الشقيري على رأسها.

وكانت سنوات صعبة. لكن مثمرة قضاها الشقيري في اتون سياسة عربية متناقضة، لكنها صاعدة. ووسط صراعات ومخاضات فلسطينية لا محدودة، استطاع الرجل أن يؤطرها جميعاً في سبيل تعزيز بنيان كياني فلسطيني متنوع الاهتمامات، يتابع مختلف التفاصيل على نحو ما تكنه «الدولة» من حيث الاهتمام بالشؤون السياسية والاقتصادية والعسكرية والنقابية ووصولاً الى أدق التنفاصيل، وبمهارة شديدة استطاع أن يمارس كل تلك الأعمال وسط تناقضات وصراعات دولية واقليمية وعربية، بل وفلسطينية، وربما في هذا تكمن قدرة الرجل على النجاح في انجاز عمل سخر له كل امكانياته وحياته.

وثمة فضيلة أخرى للرجل، وهي أن كل ما أقامه وبناه من جوانب في الكيانية الفلسطينية، كان يتجه مثل رأس سهم نحو فلسطين القضية والشعب جامعاً خلف رأس السهم كل ما استطاع من امكانيات من محيطه العربي، ولم يقبل في ذلك تساهلاً أو مساهمة في موضوع، حيث تركز الجهد نحو استعادة الحق الفلسطيني الضائع والمهدور، وكانت تلك سمة سياساته وممارساته في قيادة منظمة التحرير خلال الفترة الممتدة ما بين ولادة المنظمة وانعقاده القمة العربية الثالثة في الخرطوم أواخر عام ١٩٦٧ بعد الهزيمة العربية في الحرب مع العدو الصهيوني.

خلاصات تجربة:

أفرزت هزيمة حزيران (يونيو) ١٩٦٧ جملة معطيات على الصعيدين الفلسطيني والعربي، وكان الرجل أحد ضحايا تلك المعطيات. ربما لأنه كان الأضعف في بنيان عربي رخو ومهزوم، فحاولوا تحميله ما أمكن من مسؤولية ما حصل في القمة العربية الثالثة في الخرطوم، لكنه لم يهدأ أو يستسلم إلا مع تثبيت «لاءات الخرطوم (المعروفة) لاصلح، لااعتراف، لامفاوضات»، وهي الشعارات التي تراجع عنها العمل بها الذين تولوا قيادة المنظمة بعده من الجماعات الفلسطينية المختلفة وكذلك تراجعت عنها الأنظمة العربية التي حاولت تحميل الرجل مسؤولية ما حدث في حزيران (يونيو) ١٩٦٧.

وقد اعتزل أحمد الشقيري الحياة السياسية بعد تقديمه استقالته من رئاسة المنظمة لـ«الشعب العربي الفلسطيني» وانكب على شؤون التأليف والكتابة عن خلاصات تجربته في الحياة السياسية الفلسطينية» والعربية والدولية، ورفض كل العروض المقدمة له لاستلا م مناصب أو أعمال رسمية وظل يتابع عن قرب الشأن العام الفلسطيني والعربي مبدياً آراء وأفكار ذات أهمية في علاقاتها بالصراعات العربية الصهيونية وامتداداتها الدولية، ووضع خلاصات تجربته الطويلة والغنية في مؤلفاته الكثيرة.

وشأن أصحاب المواقف العملية المتناغمة مع الآراء التي يتبنوها، لم يحتمل الرجل الإقامة في بلد اختاره معظم حياته للاقامة فغادر القاهرة بعد مسيرة السادات الى القدس عام ١٩٧٨، ولم يعد اليها أبداً، فأقام بقية أيامه متنقلاً مابين تونس وبيروت، قبل انتقاله الى عمان للعلاج في مدينة الحسين الطبية وهناك توفي أواخر شباط (فبراير) ١٩٨٠؛ وتم دفنه في غور الأردن.

انطون سعادة: الذي رحل مبكراً

قبل خمسة وأربعين عاماً غاب انطون سعادة، وأثار ذلك الغياب كثيراً من اللغط والتأويلات سواء بما كان يمثله الرحل من شخصية وأفكار، وما كان له من أنصار وأتباع ملتفين حوله في إطار حزب سياسي، أو بما كان لغيابه من التباسات محلية واقليمية ودولية، انكشف بعض جوانبها في سنوات لاحقة، غير أنه مازالت هناك جوانب لم يكشف النقاب عنها، ومازالت عرضة للتدقيق والمتابعة. وهنا نعود الى بعض جوانب حياة سعادة وقضية غيابه.

ولادته ونشأته:

ولد انطوان سعادة في منطقة المتن في جبل لبنان في بداية آذار (مارس) ١٩٠٤، ووالده خليل سعادة الطبيب والأديب والشخصية الاجتماعية اللبنانية التي أخذت طريقها للشهرة سواء في لبنان أو في المهجر الامريكي من خلال العمل العام سواء في الصحافة أو في ميدان العمل السياسي.

حصل انطون سعادة على تعليمه الاساسي في مدرسة الشوير، كما تلقى تعليماً ثانوياً في مدرسة الفرير بالقاهرة، حيث كانت تقيم العائلة

لبعض الوقت، ثم تابعه في لبنان. وقد غادر سعادة وطنه عام ١٩٢١ الى الولايات المتحدة، وانتقل بعدها الى البرازيل مقيماً مع عائلته، ليساعد والده في تحرير صحيفة «الجريدة» ومجلة «المجلة» اللتين أصدرهما الدكتور خليل سعادة هناك.

وبالرغم أن سعادة الابن لم يكمل تعليمه العالي بصفة نظامية وأكاديمية في الجامعات، فقد حصل على علم جمع مابين الاتساع والعمق بجهده الخاص ومثابرته، حيث أجاد من اللغات الانكليزية والفرنسية والالمانية والروسية اضافة الى الاسبانية والبرتغالية مع تفوق خاص في اللغة العربية، أتاح له ذلك الاطلاع على معارف وعلوم واسعة وكثيرة بلغاتها الاصلية وفي عداد تلك العلوم اطلع وتبحر في العلوم الاجتماعية من فلسفة وتاريخ الى الادب، كما اطلع على علوم طبيعية، وتجاوز في كثير من ذلك حد الاطلاع الى درجة التعمق المتخصص، وبذلك صار الرجل قريباً من الرجال الموسوعيين، أو أنه غدا كذلك بالفعل.

الطريق الى السياسة:

وبصفة عامة، فإن نشأة انطون سعادة الشخصية، اضافة الى الظروف العامة لحياته، جعلته على عتبة الاهتمام بألشان العام، وقد نما هذا الاهتمام وتعمق مع ثقافة الرجل بتنوعها وتعددها مترافقة مع أحساس مرهف بما حوله من ظواهر وأحداث، وبخاصة معايشته الظروف التي دفعت مواطنيه -بمافيهم عائلته- الى الرحيل والهجرات من الوطن الى المغتربات هرباً من الاضتطهاد العثماني وعسف الانتداب الفرنسي،

وظروف الحرب العالمية الاولى التي تركت آثاراً مأساوية في واقع المشرق العربي ولاسيما في جبل لبنان.

وكان لانشغال سعادة بالصحافة المهجرية مع والده أثر بين في طريقة الى السياسة سواء في الانضواء تحت جناح جمعيات وأحزاب، أو تأليف جمعيات سرية في المهجر تعمل من أجل تحرر الوطن واستقلاله، ويبدو أن سعادة الابن تشكك في جدوى السعي لهدف كهذا في المهجر، ممادفعه الى العودة الى الوطن واطلاق مشروع التحرر والاستقلال منه مباشرة.

وهكذا عاد انطون سعادة الى بيروت، ثم الى دمشق، واشتغل محرراً ومترجماً في جريدة «الأيام» الدمشقية، وانتقل بعدها في عام ١٩٣٢ الى بيروت ليتولى تعليم اللغة الالمانية لطلبة الجامعة الامريكية، وفي العام ذاته أعلن عن تأليف الحزب السوري القومي الاجتماعي، أحد أهم الاحزاب العقائدية في المشرق العربي، الذي أصبح سعادة زعيماً له، وكان في ذلك يسعى -كماقال لاحقاً- في حل «للمعضلة السياسية المزمنة التي تدفع شعبي من ضيق الى ضيق».

وجود المعضلة:

إن «المعضلة السياسية» كما كان يراها سعادة، وعلى نحو ماعبرت عنها كتاباته، تمثلت في رداء الواقع على نحو ما آلت اليه، الأمة التي مزقها الاجنبي في مشروع سايكس-بيكو، ثم وطأها محتلاً تحت يافطة الانتداب، فيما كانت خطة مشروع الاستيطان اليهودي في فلسطين تمضي نحو اكمال حلقاتها ممثلة التحدي الأهم والأكبر في حياة أمة،

تمتد في جغرافيتها على معظم المشرق العربي، وتمتد روابطها في أبعاد أخرى نحو بقية الأنحاء العربية، طبقاً لما لاحظه انطون سعادة تالياً.

لقد صاغ سعادة فلسفته عن «الأمة» و«قضاياها» في مجموعة كتابات كان من أبرزها «نشوء الأمم» و«شرح المبادىء» و«نشوء الأمة السورية» اضافة الى دراسات ومقالات تناولت مختلف جوانب الشأن القومي العام، واستحق الرجل بسبب أفكاره وكتاباته متابعة سلطات الانتداب وغضبها، فتم اعتقاله أكثر من مرة، كما صدرت ضده أحكام غيابية بالسجن لعشرين عاماً، وبالنفي من البلاد مثلها.

غادر انطون سعادة الوطن الى المهجر عام ١٩٣٨ سعياً وراء تعزيز روابط مواطنيه هناك بوطنهم وقضاياه الأساسية، وأدى اندلاع الحرب العالمية الثانية ١٩٣٩-١٩٤٥ الى ابقاء الرجل الزامياً هناك حتى أوائل عام ١٩٤٧، وقد استغل السنوات تلك في استكمال وتطوير أفكاره وتصوراته، كما عمل خلالها على تطوير وتقوية منظمات وفروع الحزب السوري القومي الاجتماعي في المهاجر الى جانب استمراره في متابعة نشاطات فروع ومنظمات الحرب الذي ألفه في البلاد الشامية.

لقد أسس سعادة في المغتربات صحافة عامة عربية سورية، كان من بينها «سورية الجديدة» في البرازيل، ثم جريدة «الزوبعة» في الارجنتين، وفي الأخيرة نشرت معظم كتاباته خلال تلك المرحلة، وكان من نتاجها كتابه «الاسلام في رسالتيه: المحمدية والمسيحية» وكتاب « الصراع الفكري في الادب السوري». والكتاب الاول دراسة مقارنة لظاهرة اجتماعية تؤكد «الوحدة الروحية للامة السورية في الرسالتين (المسيحية

والمحمدية)» والكتاب الثاني خصصه لتناول «أدب الانحطاط وتعريضه للنقد الشديد» كما وضع خلاله «مقاييس وقواعد للادب القومي الصحيح بعد قيام النهضة، التي كانت تباشيرها، قد بدأت تطل على العام العربي في الاربعينات» حسب مالاحظ بعض دارسي الآثار الفكرية لانطون سعادة.

الفكري والسياسي:

رسم سعادة في نتاجه الفكري خطاً مميزاً عن أقرانه من مفكري المشرق العربي الذي عاصروه، خطاً يقوم على أساس أن «الأمة السورية» -بمعناها الواسع- لها خصوصيات في واقعها وبعدها العربي، وذهب أبعد عندما ولف جهده السياسي في خدمة الفكرة تلك، فألف حزباً مدّ فروعه وتنظيماته في الوطن والمهجر، وأقام لهذا الحزب تنظيماً جديداً يجمع مابين الفكرة والنظام الصارم داخل الحركة السياسية، ثم احتل منصب الزعامة في الحزب، مما ترتب عليه بروز مخاوف كثيرة في الأوساط المحيطة التي تألبت عليه محلياً واقليمياً، وتحالفت سراً وعلانية ضده، واتجهت للعمل على تصفية تلك التجربة، التي صنعها سعادة، لأنها تضع البلاد ومستقبلها في أجواء غير محسوبة النتائج، أو هي غير مناسبة في نهاياتها لتلك الأوساط المحلية والاقليمية.

الحرب الدموية ضد الظاهرة:

والبداية كانت في جر أنصار سعادة الى معركة دموية لتصفيتهم، ثم الاجهاز على البقية بطريقة ما، فاندلعت صدامات بين الجهاز العسكري - الأمني للسلطة اللبنانية وأنصارها مع تنظيمات الحزب وجهازه العسكري

منتصف عام ١٩٤٩، وأعقب ذلك قيام الحكومة الدكتاتورية العسكرية بدمشق التي كان يرأسها حسني الزعيم بإعتقال انطون سعادة وتسليمه للحكومة اللبنانية، التي رتبت محكمة عسكرية شكلية أصدرت حكماً جاهزاً بالاعدام تم تنفيذه في غضون ساعات قليلة.

لقد لخص كمال جنبلاط الشخصية السياسية والاجتماعية العربية التي عاصرت تلك الفترة من موقع المسؤولية في مجلس النواب اللبناني في استجواب قدمه للمجلس النيابي اللبناني قضية سعادة بالقول «وفي الواقع، وفي نظر كل من اطلع على خفايا الأمور. لقد تدخلت بعض الدول الاجنبية المعروفة في قضية سعادة، وضغطت بحيث أن أكثر الأعمال الاعتيادية التي صدرت عن الحكومة اللبنانية بهذا الشأن إزاء الحزب القومي، ومن ضمنها المحاكمة والقضاء على سعادة وبعض أتباعه بهذه السرعة، وبهذا الشكل، قد تمت بناء على توصيات وتدخلات وتأثيرات دول أجنبية وعربية معروفة».

بندلي صليبا الجوزي:
البعيد المنشغل بهموم وطنه

عندما كتب المفكر الراحل «حسين مروة» مقدماً أحد أهم أعمال بندلي الجوزي في طبعة جديدة قال: إن من البديهيات تأكيد ريادة بندلي الجوزي في حقل الدراسات التراثية العربية - الاسلامية ويضيف الى ما سبق القول: أن الامر يتجاوز تلك البديهيات عندما نقلب ونقرأ ما كتبه الجوزي من دراسات عن الحركات الفكرية في الاسلام، وعن التاريخ الاقتصادي والاجتماعي عند العرب ودراساته في اللغة وفلسفة اللغة وغيرها مما خلفه لنا من دراسات وأبحاث كثيرة.

ويعدد حسين مروة كثير من الصفات البارزة في تجربة الرجل ومنها شمولية الرؤية وسعتها والمنهج العلمي الموضوعي والابتعاد عن التعصب والانحياز والتزامه حداً صارماً في نزاهة الباحث كل ذلك رغبة في الوصول الى الحقيقة، وينقل عن الجوزي قوله في رد على أحد محاوره «اني أؤكد لحضرته أني لا أقصد إلا الحقيقة على قدر ما تتكشف لي وتساعدني معارفي وحالة العلم على ادراكها وإني أكره الجدل الباطل ولا أتعالى عن الحقيقة إن بدت لي في أبحاث غيري».

الأصول والتأسيس:

يعود أصل بندلي صليبا الجوزي الى عائلة مقدسية اشتهر العديد من أبنائها في مجالات الفكر والفن والثقافة في العقود الماضية بل أنهم احتلوا مكانة الريادة في كثير من المجالات التي عملوا فيها وكان منهم نصري الجوزي وصليبا وهما من رواد المسرح في فلسطين، ومثلما يعتبر بندلي رائداً في ميدان البحث التراثي في الحضارة العربية - الاسلامية.

ولد بندلي الجوزي في القدس سنة ١٨٧١ وهناك تلقى تعليمه الأولي في كلية دير المصلبة التابعة للكنيسة الارثوذكسية، وبعدها تابع بندلي تعليمه في مدرسة كفين القريبة من طرابلس الشام وتحت تأثيرات معينة تم ارسال بندلي الجوزي الى روسيا القيصرية في العام ١٨٩١ لدراسة اللاهوت لكنه وبعد ثلاث سنوات من الدراسة تحول الى الدراسات الاجتماعية في جامعة قازان ونال درجة الماجستير منها وكان موضوعه المعتزلة والبحث الكلامي التاريخي عند العرب وقد هيأ له ذلك اضافة الى مزاياه الكثيرة الانضمام الى الأسرة التعليمية في الجامعة، وهيأت ظروف الحياة الجديدة وبخاصة الجامعية الفرصة أمام بندلي الجوزي لتطوير امكانياته ومعارفه ووسعت اطار اهتماماته، فقد تعلم الجوزي وأجاد لغات منها السريانية واليونانية والفرنسية والانكليزية والالمانية اضافة الى الروسية والعبرية والعربية وقد كتب في أغلب تلك اللغات كتباً ومقالات والكثير منها كتبه بالعربية. ومنها كتابه الهام «من تاريخ الحركات الفكرية في الاسلام» الذي نشره في القدس عام ١٩٢٧ وكذلك مقالاته وأبحاثه الكثيرة التي نشرها في الدوريات العربية الهامة

في زمنه، ومنها «المقتطف» و «الهلال» و «النفائس» المصرية وباستثناء الامكانيات اللغوية العالية والواسعة التي امتلكها بندلي الجوزي، فقد تطورت امكانياته العلمية والادارية متنقلاً من معيد في الجامعة الى أستاذ في قسم اللغة العربية وآدابها، ثم أصبح رئيساً للقسم العربي في أكاديمية العلوم في اذربيجان في النصف الأول من الثلاثينات، قبل أن يستقر لسنوات طويلة عميداً لقسم الدراسات الشرقية في جامعة باكو، ويصير أحد أبرز «أعلام الاستشراق» في الاتحاد السوفياتي السابق.

هموم لاتبعدها الغربة:

وإذا كان بندلي الجوزي ابتعد عن وطنه جغرافياً فقد احتفظ بكثير من هموم وطنه وقضاياهم فوضع بعضها تحت عقل مفكر وعين الباحث دراساً ومدققاً في جوانب متعددة من الحياة الفكرية والتاريخية الثقافية، وفي ذلك جاءت معظم مؤلفاته التي قاربت عشرين مؤلفاً ومخطوطة بالعربية باستثناء ستة وعشرين كتاباً ألفها الجوزي وصدرت بالروسية وترك معها تسع مخطوطات باللغة ذاتها.

إن التعبير عن انشغال الجوزي بهموم وطنه أخذت بعداً أوسع من الجغرافيا الضيقة محصورة في فلسطين فامتدت في المحيط العربي - الاسلامي وهذا ما توحي به عناوين مؤلفاته ومنها كان «الاسلام والتمدن» وهو بحث فكري في العلاقة بين مفهومين والى هذا النوع من المؤلفات ينتهي كتابه الفكري الآخر «المعتزلة والبحث الكلامي التاريخي في الاسلام» وكتابه الأهم الذي حاز على أساسه شهادة الدكتوراة «من تاريخ الحياة الفكرية في الاسلام» وفيه تناول الجوزي «أسس الاسلام

الاقتصادية» و«الامبراطورية العربية والأمم المغلوبة» قبل أن ينتقل للحديث عن فرق اسلامية منها «حركة بابل» و «الاسماعيلية» و«القرامطة» وفي بعد آخر من انشغالات الجوزي بالهموم العربية - كما تجسدها مؤلفاته - تتقدم كتب في التاريخ ومنها «تاريخ كنيسة أورشليم» و «وأصل سكان سوريا وفلسطين المسيحيين» و «وأصل الكتابة عند العرب» وفي ذلك لا يعزل الجوزي التاريخ عن الحاضر فيصل بينهما في بعض مؤلفاته ومنها «جبل لبنان: تاريخه وحالته الحاضرة» و«العلاقات الانجلو - المصرية» و «الاصلاحات العلمية عند العرب المعاصرين» واهتم بندلي في جوانب أخرى لا شك في اتصالها - ولو غير المباشر - بالموضوع العربي في عداد ذلك تبرز مؤلفاته التعليمية منها «مبادىء اللغة الروسية لأولاد العرب» و «القاموس الروسي - العربي» وكل واحد منهما مؤلف من جزئين وقد صدرت بعض كتاباته الوثيقة الصلة بالواقع العربي في مؤلف واحد أواخر السبعينات تحت عنوان «دراسات في اللغة والتاريخ الاقتصادي والاجتماعي عند العرب» وفي ذلك تلخيص وتكثيف لاهتمامات الرجل بواقع وطنه.

صلات أكثر من الكتابة:

لم يقتصر اهتمام الجوزي بوطنه على معالجة قضاياه كتابة وبحثا بل مد اليه خيوط صلة أبعد وأكثر لعله الأعم والأهم فيها تردده الى فلسطين ومصر وقيامه بنشاطات ثقافية هناك وفي هذا تبرز زيارته لفلسطين عامي ١٩٢٧ و ١٩٣٠ في الاثنتين ألقى الرجل محاضرات وأمسيات فكرية وفلسفية في نوادي وجمعيات كبريات المدن الفلسطينية، يتصل كثير منها

بتاريخ الحركات الفكرية وتاريخ التمدن عند العرب والمسلمين كما زار مصر وقام بأنشطة متعددة في عاصمتها القاهرة.

خلاصة القول أن رائداً ومفكراً وكاتباً مثل بندلي صليبا الجوزي، لم تمنعه ظروف الترحال والاغتراب عن الاهتمام بهموم بلاده وشعبه، فعمل جاهداً وبدأب شديد لفتح أبواب جديدة في معرفة الواقع العربي سواء في بعده التاريخ أو في واقعه الراهن آملاً في إناره الزوايا المستقبل لبلاد أحبها وقد أعطاها الكثير من حياته وجهده.

جبرا ابراهيم جبرا:
مبدع من هذا الزمان

قدم توفيق صايغ مجموعة جبرا ابراهيم جبرا «عرق وقصص أخرى» فكتب يقول عن أحد أبطال تلك المجموعة: «بطل هذه القصة يثري بعد فقر، ويحصل على المال الوافر، والجاه الرفيع، لكنه يهجر المدينة على غير انتظار، ويقصد الجبال والفلاة والصخور، لكنّنا في المدينة العامرة، نقرأ أنه كان يعيش «في منزل متواضع»، أما في الجبل الصخري الموحش، فنقرأ أن «البيت الذي ابتناه هناك لم يكن مجرد كوخ بسيط. بل أشبه بالقصر». يعيش وحده، يستمع الى اسطوانات موسيقية، ويمزق أوراقه النقدية المتراصة، نافضاً عن نعليه الغبار الذي لحقهما من المدينة، ويلجأ للفن–ويموت، اذ قد أتم رسالته».

في هذا التقديم، لايكتب توفيق صايغ الشاعر الراحل عن أبطال جبرا ابراهيم جبرا في القصة فحسب، إنما يكتب عن جبرا عينه أو بعضاً من صفاته التي يعرفها الذين تابعوا كتابات جبرا وعرفوه بصفته واحداً من المحسوبين في عداد الجيل الموسوعي من رجال الابداع والثقافة العرب، الذين كرسوا شخصية مميزة للثقافة والابداع العربيين على مدار عقود النصف الثاني من القرن العشرين.

مقدمات شخصية:

ولد جبرا ابراهيم جبرا في بيت لحم وسط فلسطين عام ١٩١٩، وفي تلك المدينة-القرية ذات الأجواء الخاصة في البعدين الثقافي والتاريخي، تلقى تربيته الأولى، كما حصل منها على تعليمه الأساسي، قبل أن ينتقل الى مدينة القدس، ويتابع تعليمه هناك في الكلية العربية مابين عامي ١٩٣٥-١٩٣٩، وهي سنوات الصراع الشديد بين البلاد وغزاتها، والذي كانت القدس أحد أهم ساحاته، وفي ظل تلك الأجواء تكونت أولى لبنات شخصية جبرا، والتي ستظهر سماتها لاحقاً في نتاجه الابداعي في عالمي القصة والرواية، وعلى نحو خاص في مجموعته «عرق وقصص أخرى» وفي روايته «البحث عن وليد مسعود».

أنهى جبرا دراسته في الكلية العربية بالقدس عام ١٩٣٩، ثم سافر الى بريطانيا في منحة من ادارة المعارف العامة لحكومة عموم فلسطين، فدخل جامعة «اكستر» ثم جامعة «كمبردج» وقد تخرج حاملاً ماجستير اللغة الانكليزية.

وأتاحت له سنوات «الحياة الانكليزية» الاطلاع والمعايشة لمجتمع جديد ومختلف، وأعطته سنوات الوحدة، فرصة الاطلاع والمعرفة عن قرب، وهو الذي أتقن لغة ذلك المجتمع، وتعرف على ثقافته وتطوره، وبذلك أضاف الى صفاته الشخصية أبعاداً أخرى سوف تصقل شخصية المبدع كاتباً وشاعراً وناقداً وفناناً على نحو ما سوف يصير اليه جبرا ابراهيم جبرا لدى عودته الى فلسطين عام ١٩٤٤، حيث جرى تعينه أستاذاً في الادب الانكليزي في الكلية الرشيدية بالقدس، وبقي يمارس

عمله هذا حتى حصول نكبة فلسطين عام ١٩٤٨، فغادر نازحاً الى العراق ليستقر هناك، لكن صوراً من فلسطين، ولاسيمامن القدس ستظل تلمع في عينيه على نحو مايشهد الذين عرفوه وعايشوه سنوات طويلة، وحتى الذين قابلوه قبيل رحيله، كان من السهل عليهم ملاحظة ذلك بسهولة ويسر.

وفي العراق صار جبرا أستاذاً في الادب الانكليزي لعدة سنوات بكلية الآدب بجامعة بغداد، الأمر الذي يؤكد ضلوعه ومعرفته العميقة في تلك اللغة، وهو أمر ساعده في السفر لزمالة دراسية في جامعة «هارفرد» في الولايات المتحدة لدراسة النقد، وبعدها عاد الى بغداد عام ١٩٥٤، فتم تعيينه موظفاً ادارياً في شركة نفط العراق، واحتفظ في الوقت عينه بعمله كمحاضر في كلية الاداب بجامعة بغداد حتى عام ١٩٦٤، عندما تفرغ للكتابة بصورة نهائية.

خلاصة القول، أن تلك الفترة من حياة جبرا أسست لولادة وتطور مبدع وفنان، نشأ وتربى في أجواء بيت لحم والقدس بما فيهما من تكوين ثقافي-حضاري، ثم أضاف الى ذلك ترحاله ومعايشته لثقافة وحضارة غرب،كانت ماتزال شمسه تقاوم الغروب، والى جانب ذلك كله كانت حياته البغدادية، حيث بقايا روح الحضارة العربية-الاسلامية التي تغمر عاصمة الامبراطورية العباسية.

تنوع الابداع:

ومنذ أواسط الخمسينات، أخذ نجم جبرا ابراهيم جبرا، يلمع في سماء الأدب، إذ صدرت روايته الأولى «صراخ في ليل طويل» في بغداد عام ١٩٥٥، وتوالت بعدها روايات أخرى منها «السفينة» و «البحث عن

وليد مسعود» و«الغرف الأخرى» و«عالم بلا خرائط» التي كتبها مشاركة مع عبد الرحمن منيف، وصدرت في بغداد عام ١٩٨٣.

وفي القصة، تميزت مجموعته «عرق وقصص أخرى» التي صدرت في بيروت عام ١٩٥٦، وضمت بين غلافيها أحد عشر قصة أولها «عرق» ثم توالت «المغنون في الظلال»و «الغراموفون» و«ملتقى الاحلام»... الى «الرجل الذي كان يعشق الموسيقى»، وامترجت عوالم البشر والامكنة وتداخلت في خليط ملحمي، يصل بين العوالم المتناقضة الممتدة مابين القدس وبغداد ولندن وبوسطن وهي الأماكن التي كانت تدور منها أحداث تلك القصص.

في ميدان الشعر كتب جبرا ابداعات ذات قيمة، فكانت له دواوين نشرت على مدار عقدين ونيف في بيروت وبغداد «تموز في المدينة» و«المدار المغلق» و«لوعة الشمس». وكانت له في النقد مكانة أبرز، إذ ألف كتب كثيرة في ميدان النقد الادبي والتشكيلي على السواء ومن هذه المؤلفات «الحرية والطوفان» الصادر في بيروت عام ١٩٦٠، و«جواد سليم ونصب الحرية» المطبوع في بغداد عام ١٩٧٤، وآخرها كان «البئر الأولى» الصادر عن دار الريس في لندن عام ١٩٨٩.

ومثل تعدديته في ميدان الابداع روائياً وقاصاً وشاعراً وناقداً أدبياً وتشكيلياً، وفناناً في المجال الأخير، كان جبرا مترجماً مميزاً، وهو الذي أمسك مبكراً وبقوة بناصية العربية والانكليزية، ودخل روحهما معاً، وأضاف ثقافته ومعرفته الواسعة وابداعاته على موضوع الترجمة عمقاً واتساعاً، فوصلت ترجمته حد الابداع سواء في مستواها أو في تنوعها

المعرفي والثقافي. فترجم الرجل في ميدان القصص «قصص من الادب الانكليزي المعاصر» المطبوع في بغداد عام ١٩٥٥، وفي المسرح، ترجم لكاتب الانكليزية وليم شكسبير «هاملت» و«الملك لير»و «عطيل»...، كما ترجم «في انتظار غودو» من أعمال بيكيت، وقدم ترجمات نقدية ومؤلفات لكثيرين منهم «روبرت فروست» و«وليم فوكنر» و«البير كامو».

وقدم جبرا في النقد الادبي ترجمات ذات مكانة خاصةمنها «الاديب وصناعته» و«ثلاثة قرون من الادب» وترجم في الاسطورة «الاسطورة والرمز» وفي الفلسفة قدم جبرا للمكتبة العربية ترجمة كتاب هنري فرانكفورت وآخرين «ماقبل الفلسفة».

لقد عاش الرجل كما ينبغي لمبدع أن يعيش متنقلاً بين الحواضر و الثقافات وبين فروع المعرفة معمقاً صلته بالمحيط بما فيه من أماكن وبشر وتراث ثقافي وحضاري مبدع، وبذلك وحده صار شاهداً على عصره، مبدعاً عاش زمانه، لكنه لم يحتمل زمن الانهيارات العربية، فغادرنا مغلقاً عينيه على ما تبقى من صور لم تتشوه بعد.

زكي الأرسوزي

تختلف الآراء فيما يقال عن زكي الأرسوزي، وثمة أكثرية، تميل الى تبجيل الرجل، وإجلال ماحمله من أفكار وماجسدْ من سياسات في حياته التي امتدت فعاليتها النشطة بين عامي ١٩٣٠-١٩٦٨ والأخير عام وفاته في دمشق التي أودعته الثرى في موكب شارك فيه الرسميون السوريون مع حشد من أصدقائه وتلامذته ومريديه.

خلفية عامة:

ولد زكي الأرسوزي في اللاذقية في حزيران (يونيو) ١٨٩٩ لأب يشتغل بالمحاماة ووالدة تنتمي الى أسرة مشهورة بالتدين والورع من قرية «أرسوز» في لواء اسكندرون، وانتقل الطفل مع والديه الى أنطاكية للعيش هناك، ثم نفي الوالد الى الأناضول، وهناك أتيح للأرسوزي تعلم التركية واتقانها.

وهناك أبناء جيله، تعلم القراءة، وحفظ القرآن لدى «شيخ الكتاب»، قبل أن ينتقل الى المدرسة الابتدائية عام ١٩٠٨، ثم الى الرشدية، ومع تنقلاته كانت تتعمق مطالعاته في الكتب الدينية والصوفية، والأخيرة ستترك أثرها اللاحق في حياته وسيكون ذلك واضحاً في أفكاره، ثم سافر

الى بيروت بعد انتهاء الحرب الأولى، حيث درس اللغة الفرنسية لمدة عام واحد.

بعد عودة الأرسوزي من بيروت تولى وظائف أميرية، ولم يطل به المقام، فتم إيفاده الى باريس أواخر العشرينات لدراسة الفلسفة في «السوربون» وبقي فيها نحو ثلاث سنوات تعرف من خلالها الى العلم والعالم، وعاد متأبطاً محصلة من الآراء والأفكار إضافة الى لغة ستكون جميعها من المؤثرات الهامة في حياته التالية.

المربي والسياسي:

حين عاد زكي من فرنسا عام ١٩٣٠ - حسب أغلب المصادر - بدأت حياته التي نحن بصددها، وكانت البداية في تعينه مدرساً في «تجهيز» ثانوية انطاكية، وهي الموقع الذي سيرتفع من خلاله صوت الأرسوزي، وسيجد فيه من يسمعه ومن يسير معه من تلاميذ وطلبة، وسيصير هؤلاء ظاهرة مميزة ومؤثرة في حياته ترافقه أينما حل أو ارتحل، وبدأ في دمج الطلبة المنفصلين دينياً وطائفياً، ألحقه بإشاعة أجواء محبة العلم والحرية والمساواة والدعوة اليها، وجميعها موضوعات لايخفى الأثر الفرنسي عليها، ولو أنه لايمكن الجزم بأنه كان الوحيد في هذا المجال.

وذهب الأستاذ أبعد من المدرسة بإنتسابه الى نادي أرثوذكسي هو «نادي الفنون الجميلة» دافعاً طلابه وأصدقائه ومعارفه، بغض النظر عن انتماءاتهم العرقية والدينية والطائفية والجنسية - الى الانتساب للنادي وعندما رشح نفسه لإدارة النادي، كان من الطبيعي انتخابه بالإجماع رئيساً - وتغير اسم النادي الى «نادي العروبة» ولاحقاً فإن الأرسوزي

يطلق اسم العروبة» على الجريدة التي أصدرها في أنطاكية لتكون واحدة من منابر الدعوة لأفكاره الآخذة في التبلور ضمن رؤيا شاملة.

وسيرة الرجل على نحو ماآلت اليه في انطاكية، كانت محط معارضة الانتداب، فتم نقله مدرساً في ثانويات حلب ودير الزور وكانت فرصته للتعرف على البلاد، ومتابعة المهمة التي أخذ احسساسه بها ينمو على أنها «رسالة» والتي لم يقعده عنها قيام السلطات بفصله نهائياً من عمله في التدريس عام ١٩٣٤، فعاد الى أنطاكية للإقامة والتبشير بـ«رسالة» تختلط فيها السياسة بالأفكار والممارسة النظرية.

رجل لقضية متعددة الأبعاد:

إن الاختبار الأول والحازم في حياة الأرسوزي، كان معركة لواء اسكندرون، ورغم أنها كانت معروفة النتائج، بحكم معطياتها حيث الاختلال الهائل بموازين القوى في القضية، فقد لمع اسم الأرسوزي الذي خاض معركة عروبة اللواء موظفاً كل إمكانياته فيها، وساعده في ذلك نهوض شعبي هو جزء من النهوض الشعبي العام في سوريا والذي كان من بين تعبيراته الاضراب الستيني في أواخر عام ١٩٣٦، ولم يثنه سجن أو تهديدات، فبقي على موقفه الى أن احتل الأتراك اللواء وفصلوه عن جسد الأم، فهاجر زكي الأرسوزي عام ١٩٣٨ الى حلب ثم الى دمشق.

وثمة جانب في حياة الأرسوزي وهو ربط الفكرة بالسياسة بوعاء تنظيمي الأمر الذي جعله ينتمي الى «عصبة العمل القومي» ثم يدعو الى تشكيل نواة تنظيمية بإسم «البعث» وهي التي آل بعض الذين عاشوا في اطارها مجموعة من المشاركين في تأسيس حزب البعث العربي «أواسط

الأربعينات، لكن الأرسوزي لم يلعب قط دوراً تنظيمياً في حزب البعث، ولا حتى بعد وصول البعث الى السلطة في العراق وسوريا أوائل عام ١٩٦٣.

سافر الأرسوزي الى بغداد عام ١٩٣٩، ولكن السلطات هناك أبعدته بعد عام واحد فعاد الى دمشق متابعاً مابدأه، ووسط حياة يومية صعبة، دفع كتابه الأول «العبقرية العربية في لسانها» الى المطبعة عام ١٩٤٣ «شرح فيه وجهة نظره في فلسفة اللغة العربية، وأصالة اللسان العربي».

لقد عاد «الأستاذ» للتدريس في ثانويات حماه وحلب ودمشق في الفترة مابين (١٩٤٦-١٩٥٩) أحيل بعدها الى التقاعد، وخلال تلك الفترة وفترة التقاعد (١٩٥٩-١٩٦٨) أمضى الأرسوزي حياته في متابعة ذلك الخط، خط الدعوة لفكرة العروبة، أينما كان، وكتب كثير من المقالات والكتب، بل إن تحليلاته السياسية واليومية المحلية والعربية والدولية، لم تكن لتنفصل قط عن فكرة العروبة التي تربطها بكل مايحيط بـ«الأستاذ» من ظواهر وأحداث وتطورات.

خلاصات سياسية وفكرية:

لقد ترك الأرسوزي كتابات فكرية - سياسية تجاوزت المجلدت الستة التي أصدرتها وزارة الثقافة السورية، وفي ذلك التراث الغني والواسع قدم الأرسوزي وناقش الكثير من القضايا، لكن الأهم في ذلك خلاصات نظرة الأرسوزي الى القضايا الساخنة في حياتنا الحاضرة، ومستقبلنا ومنها نظرته الى الدولة التي يرى فيها.. «أن الدولة حارس للنظام، ومراقب على توزيع المصالح بين الناس.. تهدف الى إيجاد الجو الملائم لأن يستجلي كل من المواطنين عبقريته في حدود استعداداته ومواهبه الخاصة».

أما مهام الدولة في نظرية الأرسوزي فهي «أن تأخذ بأيدي المواطنين، فترفع بهم الى مستوى الحرية، بحيث يتسنى لهم، أن يشتركوا عن وعي في المصير العام» و «مهمة الدولة الثانية، هي أن تنظم المجتمع تنظيماً، يتمكن به كل المواطنين من أن يجعل الانسجام تاماً بين حاجاته وبين حقوق الآخرين»..

ويلخص الأرسوزي رؤيته في موضوع النهضة أنها تقوم على الديمقراطية، والأخيرة مؤسسة على جملة مبادىء منها أن الجماعة مصدر السلطة، وأن السلطة ينبغي أن تقوم على حكم القانون في مواجهة الاستبداد والطغيان، وأن تتوفر الحريات الأساسية وفيها حرية الصحافة، والرأي، وحرية تشكيل الأحزاب والتنظيمات، في إطار يرى الإنسان بإعتباره قيمة مطلقة.

غير أن الوصول الى النهضة في رؤية الأرسوزي تتطلب ليس فقط الخروج العربي من واقع أمراضه الكثيرة والمتعددة. بل في الانتقال الى عقلية القرن العشرين بمايعنيه من اجراءات تتضمن تحرير الفلاحين، وتعميم التعليم، وإشادة دولة «ليبرالية» وتطوير بنية اقتصادية شاملة.

سلطان باشا الأطرش:
سيرة كفاح طويلة..

قبل عشر سنوات ونيف انطفأت شمعة حياة سلطان باشا الأطرش الرجل الذي لعب دوراً هاماً في حياة سورية وبخاصة تحت الانتداب الفرنسي فقاد ثورتها الكبرى المسلحة بين عامي ١٩٢٥ - ١٩٢٧، وعندما وضعت الثورة رحالها، غادر الى الاردن ومنه الى العربية السعودية فظل في المنفى عشر سنوات قبل أن يعود الى البلاد عام ١٩٣٧، وليعيش فيها بقية عمره.

ميلاده ونشأته:

يعود نسب سلطان الى آل الأطرش وهي عائلة درزية المذهب أصلها من جوار مدينة حلب تبوأت مركز الزعامة، ولكنها هاجرت من هناك الى جبل العرب بفعل نزاعات عائلية، وأقام قسم منها في بلدة «القريا» احدى قرى المقرن القبلي، هناك ولد سلطان الأطرش فيما بين آذار (مارس) وتموز (يوليو) من عام ١٨٩١، حسب أكثر الروايات دقة وأبوه هو ذوقان بن مصطفى ويعود في نسبه الى المقدم علي الجبل الأعلى والزعيم السياسي والروحي للدروز الذين كانوا يقطنون بجوار مدينة حلب، وأمه شيخة بنت منصور وهي من آل الأطرش أيضاً.

كان سلطان الابن الأكبر للعائلة التي ضمت اخواته علي ومصطفى وزيد، وأختيه سمية ونعايم، وعاش بداية حياته فترة قلق جبل العرب في في علاقاته مع الدولة العثمانية، مما منعه من تحصيل تعليم عام مكتفياً في البداية بما تلقاه من تعليم ديني في بيت والده، ثم تعلم القراءة والكتابة ابان خدمته في الجندية، التي أمضاها في في بلاد البلقان لمدة ثمانية عشر شهراً، بدأت في العام ١٩١٠ وانتهت عام ١٩١٢.

شنق الأتراك والده عام ١٩١١ بسبب نزاع على الأرض بين القريا وبصرى الشام وآلت اليه زعامة بلدته «القريا» بعد ذلك، وتزوج من تركية بنت ابراهيم أبو فخر فخلفت له أولاد الذين منهم منصور وناصر وطلال الى جانب سبع من البنات وكان من أهم أعمال سلطان المبكرة، قيامه بحل خلاف قريته على الأرض مع بصرى الشام، ثم مساهمته في الثورة العربية الكبرى، إذ كان من أوائل الذي دخلوا دمشق على رأس مجموعة من المتطوعين في مساء الثلاثين من ايلول (سبتمبر) ١٩١٨، ورفع العلم العربي فيها، وقد أنعم عليه الحسين بن علي قائد الثورة العربية بلقب باشا، وعمل سلطان مستشاراً للأمير فيصل بن الحسين خلال اقامته القصيرة في دمشق.

الباشا والفرنسيون:

لم تشهد حياة سلطان باشا الاطرش أية علاقات ود أو تعاون مع الفرنسيين، بل يمكن القول أن سمة العلاقات كانت عدائية، بدأت تأخذ هذا الطابع منذ دخول الفرنسيين الى سورية، وامتدت طوال الفترة التالية وذلك بسبب عداء سلطان لسياساتهم. فقد عارض الانتداب على سوريا،

واتخذ موقفاً سلبياً من الفرنسيين الذين فرضوا وجودهم بسياسة الأمر الواقع في سورية وقاموا بتقسيمها الى دول معارضاً اعلان دويلة جبل الدروز. وحتى لايدفع نحو بروز صراعات داخلية عنيفة اتخذت معارضته طابعاً سلبياً، تبلور في تكتل المعارضين الدروز لسياسة فرنسا حول سلطان الذي خاض معركته الأولى ضد الانتداب في «الدولة الدرزية» فأعلن الانتفاضة بسبب خرق الفرنسيين لتقاليد الضيافة العربية، إذ اعتقلوا ضيفه أدهم خنجر في تموز (يوليو) ١٩٢٢ المتهم الرئيسي في محاولة اغتيال الجنرال غورو، وقد اضطر سلطان الى اللجوء الى الاردن ولم يعد الى بلدته إلا في نيسان (ابريل) ١٩٢٣ حيث صدر عفو فرنسي عنه.

كانت تلك الحادثة واحدة من مقدمات الثورة السورية الكبرى التي قادها بين عامي ١٩٢٥ و ١٩٢٧ رداً على سياسات الفرنسيين وممارساتهم والتي تمثل تعبيرها البارز في سياسة الجور والطغيان وتحدّي مشاعر السوريين وتقاليدهم التي طبقها كاربية في جبل العرب وقد مدت الثورة نيرانها الى بقية المناطق السورية في دمشق وغوطتها وفي اقليم البلان والجولان ثم الى البقاع الجنوبي والشمالي ومناطق القلمون وحمص وحماة.

وكانت للظروف الخاصة بانطلاقة الثورة من جبل العرب أهميتها في صيرورة سلطان باشا الأطرش قائداً عاماً للثورة السورية الكبرى، ولكن ذلك لم يكن «كل ما في الامر» بل أن ثمة جوانب أخرى جعلت الثورة تختار قائدها، وتسير خلفه حتى النهاية وعلى امتداد مساحتها الجغرافية والزمنية. ومن بين العوامل المؤثرة في ذلك، جملة الصفات الشخصية التي

كان يتمتع بها سلطان والتي تجسد شخصية الانسان العربي في تفاصيله ومنها الشجاعة والبساطة والروح الوطنية.

وبطبيعة الحال، فإن لكل صفات سلطان تجسيدات عملية وملموسة في سنوات الثورة وكذلك في الفترة التي سبقها واستمرت بعدها، ولعل أبرز الصفات كانت شجاعته والتي وإن بدت واضحة قبل الثورة فإنها في المعركة الأولى للثورة، وهي معركة الكفر التي وقعت في ٢١ - ٧ - ١٩٢٥، فقد كانت حدثاً مشهوداً، إذ سار سلطان برجاله الى لقاء القائد الفرنسي فورمان في الكفر ومعه ١٧٢ جندياً وضابطاً - حسب المصادر الفرنسية - واستطاع بتأثير الشجاعة والتضحية اللتين أظهرهما في معركة قتل فيها معظم الجنود الفرنسيين وقائدهم، وضع الثورة على قاعدة زخم وقوة هائلتين إذ فتح ذلك بوابة التحاق آلاف المتطوعين من الجبل ومناطق سورية أخرى بالثورة السورية وقد علق منير الريس أحد المشاركين النشطاء في ثورة ١٩٢٥ على نتائج تلك المعركة قائلاً أنه ترتب عليها «اندفاع الدروز جميعاً في تأييد الثورة التي عزم (سلطان) أن يخوض غمارها، ويكون رمزها وقائدها».

وقد توالت مسيرة سلطان الأطرش في موقفه من الانتداب فرفض المساومات والتسويات مع الفرنسيين طالما بقي انتدابهم على سوريا وتطبيق سياسة القهر، وقد تعزز هذا الاتجاه التحرري وتقوى مع توسع الثورة السورية وامتدادها من جبل العرب الى دمشق وغوطتها بعد أن بايع وفد دمشقي سلطان الأطرش قائداً عاماً للثورة التي وصلت شهرتها الى حماة والقلمون ثم معظم المناطق الجنوبية والغربية من سورية ولبنان.

واعتمد سلطان الأطرش في قيادته للثورة على مجموعة من المساعدين والمستشارين الذين لعبوا دوراً هاماً فيها وكان أبرزهم في الميدان السياسي الدكتور عبد الرحمن الشهبندر الوطني البارز والأمير عادل ارسلان ونسيب البكري ومن البارزين في الميدان العسكري شقيقه الأصغر زيد الأطرش ومحمد عز الدين الحلبي وسعيد العاص وفوزي القاوقجي والآخرون من القادة المجربين الذين عرفتهم ساحات القتال ضد الانتداب الفرنسي في سورية ولبنان وضد الانتداب البريطاني والعصابات الصهيونية المسلحة في فلسطين.

ووسط تفاوت واضح في موازين القوى بين الثورة والانتداب وفي ظل حملة القمع والتدمير الوحشي الذي مارسته القوات الفرنسية ضد التجمعات المدنية السورية، مترافقة مع فرض العقوبات والغرامات الجماعية، انكفأت ثورة سورية الكبرى، وغادرت مجموعة رجال الثورة وعائلاتهم الى الأزرق في الأردن مختارة حياة المنفى هربا من الانتقام الفرنسي وكان سلطان بين الثوار المغادرين لأن سلطات الانتداب أصدرت بحقه حكماً بالاعدام في ايار (مايو) ١٩٢٦.

لقد استمرت رحلة سلطان باشا في المنفى الأردني في الأزرق أولاً، ثم في المملكة العربية السعودية، وخلافاً لمعظم قادة الثورة، عاش سلطان الى جانب أغلبية رجاله في الصحراء ملتزماً بهم وبمعاناتهم في وقت كان متاحاً له أن يعيش ظروفاً وشروطاً أفضل بكثير، وهو أمر لم يتغير بعد عودته الى قريته القريا عام ١٩٣٧ بعد أن أصدر الفرنسيون قرارات بالعفو عن رجالات الثورة وقائدهم وذلك خلال فترة انفراج نسبي في علاقات الحركة الوطنية السورية مع الانتداب

الفرنسي ابان الأجواء التي سبقت الحرب العالمية الثانية.

وخلاصة تلك المرحلة من حياة سلطان الاطرش، أنها نقلته من مجرد زعيم في قريته القريا ليصير أولاً زعيماً لجبل العرب كله، وبعدها تحول ليغدو زعيماً وطنياً وعندما تصدى لمهمة قيادة الثورة السورية الكبرى ١٩٢٥ - ١٩٢٧ وبطبيعة الحال فإن ذلك جعل منه شخصية عربية مرموقة ومعروفة.

مرحلة ما بعد الاستقلال:

استطاع سلطان الأطرش بحسب طبيعته وصفاته، وروحه الوطنية العالية، أن يحافظ على مكانته في قلوب السوريين عامة وفي قلوب سكان جبل العرب من الدروز خاصة، ولعل الامتحان الأول والأهم كان في نزاعات شهدها جبل العرب، عندما اندلعت أحداث داخلية بين آل الاطرش و«الشعبيين» الذين انتفضوا ضد سيطرة بعض الطرشان على المراكز القيادية في الجبل سواء في الادارة أو في المؤسسات التمثيلية واتخذ سلطان - رغم انتمائه العائلي الى الطرشان - موقفاً وطنياً مسؤولاً داعياً الى التهدئة ومعالجة الوضع بعقلانية ظاهرة، معلنا أن «الطرشان» لايريدون مناصب حكومية أو نيابية، وأنه يمكن نقل الموظفين من أقاربه الى أي محافظة خارج السويداء.

في مواجهة الدكتاتورية:

وجاء اختيار آخر لموقف سلطان حيال الدكتاتوريات العسكرية التي شهدتها سورية في فترة ما بعد الاستقلال وكان أولها انقلاب حسني

الزعيم ١٩٤٩، والذين تعاقبوا بعده ومنهم سامي الحناوي وأديب الشيشكلي، وقد حاول كل منهم كسب ثقة وتأييد سلطان له، وهو ما لم يضن به سلطان علي حسني الزعيم الى أن اكتشف أن الرجل لم يكن جدياً وهو ما جعله برفض الاستجابة الى سلطة الديكتاتور أديب الشيشكلي الذي سير الجيش للقيام بحملات حربية ضد جبل العرب وسكانه، كما حاول اعتقال سلطان المتهم بأعمال «التحريض ضد النظام» مما دفع الرجل للمغادرة الى الاردن حقنا للدماء وقد أوضح سلطان تلك الظروف بالقول «لم نخرج من الجبل إثر هزيمة أو انكسار، ولكننا أثرنا حجب دماء العرب في جبل العرب». وقد عاد سلطان ومرافقوه بعد سقوط ديكتاتورية الشيشكلي اثر حركة شعبية واسعة، شملت الأحزاب والقوى السياسية السورية ووحدات الجيش التي أعلنت تمردها على سلطة الديكتاتورية.

اهتمام بالمسائل القومية:

حازت القضايا الاقليمية والعربية على اهتمام سلطان الاطرش ومتابعته، كما استحوذت على اهتمامه بالقضايا الداخلية والوطنية في سورية ما بعد الاستقلال وتابع «الباشا» تطورات القضية الفلسطينية والصراع العربي - الصهيوني، وأصدر بياناً في كانون الأول (ديسمبر) ١٩٤٧، أعلن فيه تضامنه مع الفلسطينيين، داعياً الى الجهاد الى جانبهم من أجل انتصار قضيتهم ومعروف على نطاق واسع لقاء سلطان الأطرش مع فوزي القاوقجي في القريا والذي طلب فيه سلطان تجنيد أكبر عدد من المتطوعين من جبل العرب للقتال في فلسطين وتم بالفعل تجنيد

«فوج جبل العرب» بقيادة شكيب وهاب أحد رجال ثورة سورية الكبرى، ورفيق سلطان الاطرش.

ولم يقل مستوى اهتمام سلطان الأطرش بشق آخر من القضية القومية هو موضوع الوحدة العربية عن قضية فلسطين فقد أيد الرجل وحدة سورية ومصر عام ١٩٥٨، بحماسة شديدة ولئن دفعته التجربة الى تأييد «الانفصال» في ايلول (سبتمبر) ١٩٦١ فإنها لم تفقده حرارة الايمان بالوحدة العربية التي قال فيها «أن قضية الوحدة العربية، يجب أن تسمو على الكرامة الشخصية والكبرياء الفردية والمصالح الاقليمية، أنها قضية الشعب العربي كله وهو وحده المسؤول عن تحقيقها، وله كله حق المشاركة في اختيار شكلها ونظامها ومدى العلاقات التي تنظم روابط اقطارها».

وبطبيعة الحال فان لبنان ولاعتبارات كثيرة حازت قضاياه وأحداثه على اهتمام ومتابعة «الباشا» سواء الأحداث التي شهدها في ١٩٥٨ أو الأحداث التالية التي اندلعت أواسط السبعينات.

وإذا كان أيد على الدوام تفاهم اللبنانيين فيما بينهم على أساس الحفاظ على وحدة لبنان واستقلاليته ووجهه العربي فقد أظهر معارضته لسياسة الحكومة اللبنانية بزعامة كميل شمعون في ١٩٥٨، وخاطب اللبنانيين قائلاً «اننا نرجوكم جميعا أن تنظروا الى مستقبلكم ومستقبل وطنكم وأبنائكم وأن تكونوا صفاً واحداً ويداً واحدة في هذه الظروف العصيبة...».

وعارض على نحو علني ما آلت اليه أوضاع اللبنانيين بعد احداث ١٩٧٥ من اقتتال وتمزق داخلي داعياً الى ضرورة الاصلاح بالطرق السلمية والديمقراطية وبالتفاهم دون الاستجابة للتداخلات والتأثيرات الخارجية والدولية ومعروف موقفه في مطلع عام ١٩٨٢ وقبل وفاته بقليل عندما ندد بمحاولات التدخل الفرنسي في الأزمة اللبنانية.

لقد تميزت حياة سلطان باشا الأطرش في فترة ما بعد استقلال سورية بمتابعته واهتمامه بالشأن العام على المستويات المحلية والوطنية والقومية في الوقت الذي عاش فيه حياة فلاح بسيط في قريته الغافية في أحد أركان جبل العرب وهي معادلة ما كان لكثير من الرجال الذين هم مثل سلطان الاطرش أن يحققوها. وايجازاً نعود الى ما كتبه ميشال أبو جودة عند وفاته قائلاً «لايمكن كتابة تاريخ منطقتنا في هذا القرن دون التوقف طويلاً عند سيرته. ففيها محطات فيها لحظات مضيئة، أعلى منارتها القول أنها مدرسة يحسن الرجوع اليها، فلا يكون الكلام على الثورة الكبرى من دون قراءة دوره فيها، فهي سميت أيضاً ثورة سلطان باشا الأطرش.

وكبيراً كان حين ينتصر، ولم تكن الشدائد تهد عزيمته أو تجعله يلين، صلب وصامد وصبور وكما كل الكبار، يترفع عن الأذية واقتناص الفرص والتسلق على دم الاخرين، كل هذه الصفات كرسته قائداً، فبدل أن يرسل الناس الى المعارك كان يقودهم اليها وبدل أن يدفعوا الأذى عنه يدفعه عنهم، معاركه ضد الانتداب الفرنسي لم تنسها الكتب لكن ضمير الناس حفظها الى الأجيال الجديدة لتشب في رحاب مدرسة سلطان باشا

الوطنية. الفرنسيون أصدروا في حقه أحكاماً عدة بالاعدام، ولم يقنعه ذلك بالمهادنة فلو كان يخشى الاعدام لما أضرم النار، واستحال رمزاً في سورية ولبنان وفلسطين... تلك الملامح حياة رجل يرقد بسلام قرب مضافته في «القريا».

سعيد العاص كاتباً ومفكراً

غلبت على سعيد العاص صفته العسكرية، وبرز اسـمه مقـاتلاً وثـائراً وذلـك بفعـل تاريخـه العسـكري العثمـاني مـابين (١٩٠٧- ١٩١٨) ثـم بسبب مشاركته في ثورات سوريا وفلسطين فـي الفـترة التاليـة مـن حياتـه والتي وضعت رحالها في تشرين الثاني (اكتوبر) عام ١٩٣٦ خلال معركة الخضر قرب جنين في فلسطين عندما سقط وهو يقود معركة كبرى ضـد القوات البريطانية هناك.

وكان من شأن ما سبق أن يطغى على الجوانب الأخرى في ما عرف عن سعيد العاص وهو القليل بصفة عامة، وبصفـة خاصة جـانب الكـاتب المفكر الذي كانه العاص، والذي خلف لنا في اطاره كتابـات موزعـة مـا بين المذكرات والمقالات والرسائل بعضها منشـور فـي كتـب ومجـلات وأخرى ما زالت مخطوطـات، ولاسيما رسـائله الموزعـة مـا بيـن أوراق العديد من معاصريه ورفاقه.

ولاشك في أن ترجمة مبسطة ومختصرة عن حياة سعيد العاص، يمكـن أن تشكل مدخـلاً الى تجربتـه بصفتـه كاتبـاً ومفكـراً، بـل أن تلـك الترجمـة الشخصية تضعنا مباشرة أمام اهتمامات العـاص وانشـغالاته فـي ميـدان الفكـر والكتابة، تلك التي تكمل انشغالاته في ميدان الممارسة العملية.

ملامح شخصيته:

ولد سعيد العاص في مدينة حماة السورية عام ١٨٨٩، ثم انتقل الى دمشق بعد اتمام تعليمه الابتدائي، وتابع دراسته الرشيدية والاعدادية قبل أن ينتسب الى المدرسة الحربية، ويتخرج منها ملازماً حربياً عام ١٩٠٧، ويتمّ تعيينه في دمشق وبعدها تنقل سعيد العاص الضابط في أنحاء مختلفة من الدولة العثمانية وقاتل في صفوف جيشها في حروب البلقان، وانخرط في نشاطات الحركة القومية العربية مختاراً «جمعية العهد» التي أسسها عزيز على المصري عام ١٩١٣ الى جانب طه الهاشمي وفوزي القاوقجي ورشيد بقدونس وأمين لطفي الحافظ وأخرين.

تعرض العاص بسبب نشاطاته القومية ونزعته التحررية الى غضب السلطات العثمانية فتم سجنه ونفيه، بعد تخفيض حكم بالاعدام صدر ضده في الديوان العرفي في «عالية» عام ١٩١٦، ثم عاد الى سوريا في أعقاب خروج العثمانيين، واشترك في ثورات سوريا الأولى ضد الفرنسيين (١٩١٨ - ١٩٢١) وغادر الى شرقي الاردن حيث مكث سنوات حتى اندلاع ثورة سوريا الكبرى (١٩٢٥ - ١٩٢٧) فالتحق بها وخاض مشاركاً أو قائداً، معظم معاركها في الجبل والغوطة والقلمون والضنية وجبال اكروم، وغادر بعد أخر معارك الغوطة (ربيع ١٩٢٧) الى الاردن، ومنها انطلق عام ١٩٣٦ ليقود متطوعين في قتالهم ضد الانكليز في ثورة فلسطين الكبرى، حيث سقط شهيداً في احدى معاركها، وتم دفنه في قرية الخضر.

معالم من الكتابة:

فتحت تلك الحياة القصيرة (٤٧عاماً) – لكنها عريضة– آفاقا رحبة في تجربة العاص الكاتب المفكر فقد تعلم وتثقف وعايش واختلط وتأمل وفكر، وربط ذلك كله بالمعاناة الشخصية والانسانية مما ساهم في انضاج التجربة.

إن مذكرات سعيد العاص توضح الملامح الاساسية لفكره وكتاباته وفي أجزائها المختلفة المطبوعة في عمان وبيروت، تتناول مجموعة موضوعات يتداخل فيها ما هو تقريري سردي يغطي الطابع الاخبارى للأحداث وتطوراتها مع ما هو تحليل وتفسير يتناول الأحداث والظواهر بالتحليل والدرس وصولاً الى تحديد النتائج والعبر، وبين هذه الحال وتلك، لا تخلو المذكرات من لقطات ذات طابع أدبي، تتداخل مع كتابات طابع فكري وسياسي وأحياناً كتابات من طبيعة عسكرية استراتيجية الطابع، وبصورة عامة، يمكن تصنيف ما جاء في كتابات العاص في محاور رئيسية أبرزها:

يوميات الثورة السورية، وهي ذات طابع تقريري سردي عرض بها العاص التطورات اليومية للثورة السورية منذ بدايتها (صيف ١٩٢٥) وحتى آخر معاركها التي حدثت في الغوطة (ربيع العام ١٩٢٧) وقد تناولها كواحد من الذين شهدوا كل وقائعها وتفاصيلها، بأشخاصها وأماكنها فوصفها وصفاً حياً، ذلك أنه كان أحد الذين صنعوها أو شاركوا فيها، أو أنه لاحظ أنها ذات أهمية فأخذها ليوردها عن الذين شاركوا فيها أو نقلها كما كتبها الذين كانوا فيها ونسب تلك الكلمات

الى أصحابها، وكان في ذلك مثال الكاتب الامين.

وبشكل عام، فإن كتابات العاص في مجال سرد يوميات وقائع الثورة، غطت زمنياً الفترة ما بين اندلاع الثورة في صيف ١٩٢٥، وحتى الأيام الأخيرة منها في ربيع ١٩٢٧ كما أنها تغطي بصورة ما أحداث ثورات سورية سبقت الثورة الكبرى مثل ثورة قطنا، وثورة حماه وتحركات أحمد مريود ومساهمته في ثورات سوريا، وتغطي الكتابات مكانياً أحداث وتطورات مناطق الثورة في جبل العرب، والغوطة وثورة حماة وحملة القلمون وصولاً الى لبنان الشمالي والهرمل كما تغطي أحداث ثورة الاقليم ومناطق الجولان وجنوب لبنان، إضافة الى مجريات وتطورات ذات صلة بالثورة حدثت ما بين سورية والاردن ومصر خلال زمن الثورة وبعدها بقليل، ولاسيما خلال الفترة الحرجة في أواسط عام ١٩٢٦.

والموضوع الثاني الهام والبارز في كتابات العاص هو تناوله شخصيات من رجال العرب وقادتهم بل وآخرين من غير العرب الذين اتصلوا بالكفاح ضد الاستعمار وانخرطوا في غمار النضال سواء في الميدان السياسي أو في الميدان العسكري أو كليهما في آن معاً وقدم العاص في مؤلفاته المطبوعة تراجم شخصية وملخصات عن حياة العديد من الشخصيات العربية وخصوصاً الذين اتصل بهم وبعملهم في ميدان الكفاح المسلح، أو أؤلئك الذين لعبوا أدواراً سياسية اتصلت بنشاطات العاص وتحركاته الجهادية ومن هذه الشخصيات الملك علي بن الحسين وأخيه الملك فيصل بن الحسين، وهناك الدكتور خالد الخطيب ونزيه مؤيد العظم، وفوزي القاوقجي.

وبالاضافة الى ما سبق فإن كتابات العاص تناولت وقائع النقاشات والحوارات الجارية بصدد القضايا العملية التي طرحتها تطورات الثورة والمواقف المختلفة حيالها وسبل المعالجة المقترحة وأخيراً القرارات المتخذة وشكل اتخاذها بما يعكسه من وعي ومسؤولية المراتب المختلفة في الثورة.

إن احتواء الكتابات على النقاشات والحوارات أعطاها المزيد من الأهمية حيث أوضح وربط في آن معاً ما بين نشاطات الثورة ووقائعها اليومية، مع الأهداف الكبرى للثورة ومعالجات القيادة في مستوياتها العليا والوسطى والقاعدية لمختلف الظواهر والأحداث وتطوراتها وتحديد المواقف العملية المفروضة في المستويات كافة وخصوصاً الشعبية.

ومن أجل تحليلاته وآرائه - العلنية والضمنية - لم يتأخر العاص في الاتيان بوثائق ومستندات يضمها الى كتاباته «وفيها الى جانب الوثائق السياسية والتنظيمية احصائيات وأرقام بل ومصورات ومخططات ليدعم فيها الآراء والمواقف التي يتبناها أو يقف الى جانبها وكان في ذلك نموذجاً فذاً ومميزاً من قادة الثورة ورجالها.

ومن بين القضايا التي تناولها العاص تحليله ونقده للجوانب السياسية - التنظيمية المتصلة بالثورة السورية، بل وتقييم بالثورة السورية الكبرى بل وتقييم معمق لبعض قضاياها ومنها قوله «فالثورة تحتاج لتنظيم شؤون ادارة القيادة، لأنه إذا صلح الرأس صلح الجسم كله».

ويرتبط موضوع معارضة العاص للصراعات الحزبية وادخالها في جسد الثورة بالدور الذي مارسه «الاستقلاليون» حين حولوا أموال الثورة

الى أداة ابتزاز في أيدي القلة من الزعماء وهو أمر يتصل بالموضوع الثاني حيث انتشرت بفعل ذلك عمليات الفساد والافساد الناتجة عن ممارسة الزعامات السياسية للثورة وقيامها بالاستئثار بالأموال والتبرعات وصرفها خلافاً للقواعد المقررة والمتفق عليها وعلى مناطق الثورة مقابل صرف الكثير على «الفنادق والقصور» وقد صرفت مبالغ طائلة في سبيل الدعايات المضللة وملئت جيوب أصحاب جرائد مأجورة لهم من ماضيهم عبرة لمن تتبع سير القضية.

وتناولت كتابات سعيد العاص في جانب منها قضايا فكرية وسياسية في المستويين المرحلي والاستراتيجي وتعددت وتنوعت موزعة مابين مقالة أو دراسة نشرت في مؤلفاته المطبوعة أو رأي متضمن في رسالة أو مقابلة صحافية أجريت مع العاص.

ومن بين تلك الموضوعات ثلاثة نشرت في مؤلفاته «صفحة من الأيام الحمراء» كتاب يبحث في الثورة السورية، المطبوعة في عمان عام ١٩٢٩، والموضوعات الثلاثة هي مقال «المقارنة بين ثورتين شرقيتين: الثورة السورية والثورة التركية» والثاني مقال «معاقل سوريا الطبيعية والحروب الصغيرة» والثالث مقال «الدعاية وأهميتها العظمى».

وثمة موضوع آخر اتخذ فيه العاص موقفاً حاسماً وهو الموقف من الماسونية وكانت منتشرة على نحو واسع في عصره ولاسيما أوساط النخبة العربية من القادة والمفكرين وقد ربط العاص بين معارضته للماسونية ومواقفها من النضال ضد الاستعمار وعدائها للثورة المسلحة الهادفة الى التحرر الوطني وتحقيق الاستقلال، ولكنه لم يعاد قط أعضاء

في «الماسونية» اشتركوا الى جانبه في الثورة السورية الكبرى بسبب أفكارهم، بل أن أحدهم وهو منير الريس كان من أقرب المقربين الى العاص ورفيقه اليومي بما أظهر من اخلاص وشجاعة وبطولة في المعارك الحربية التي وصفها العاص في مذكراته المطبوعة في بيروت.

وعلى النسق ذاته من تحليل القضايا تناول العاص في مؤلفاته قضايا سياسية هامة وكانت واحدة من هذه القضايا تحليله للسياسة الفرنسية ازاء المستعمرات، فكتب يقول في مذكراته «قد عودتهم - العسكريون الفرنسيون - ادارة المستعمرات بأن هدف أي مستعمر اذلال المستعمر ولهذا كان دأب ادارتهم الاستعمارية احداث المشاكل في المناطق التي يستعمرونها من خلق اختلافات في المذاهب ومشاحنات بين الأحزاب وخلق عناصر وحقوق اقليات واحياء فرق قومية مندرسة أو متلاشية بين العناصر الأخرى لتكون المنازعات والمشاكسات التي تحدث بين أبناء الوطن الواحد وسيلة لتدخلهم وذريعة لتقوية نفوذهم وأن تكون سياساتهم سياسة ارهاب وهي لاشك سياسة جهل مطبق لا تنطبق على الروح العصرية..».

وأخيراً وبإستثناء ما تحتويه الكتابات من قضايا أشرنا اليها فإنها تحتوي كتابات من طبيعة خاصة كتابات ذات طابع وجداني وحكايات انسانية بسيطة.

وبعد فإن ما خلفه سعيد العاص من كتابات معروفة، تكشف بالفعل عن كاتب ومفكر انتمى الى عصره وزمانه وحاول التعامل مع القضايا والتطورات التي عايشها غير أن حياة العاص بما كانت عليه من عدم

استقرار سواء فترة وجوده في سوريا ولبنان قائداً ومشاركاً في الثورة المسلحة وفي فترة وجوده منفياً في الأردن وما صاحبها في فقر وعوز إضافة الى شهرته كقائد عسكري بارز كانت في عداد العوامل التي حدت من بروزه كاتباً ومفكراً لايقل أهمية عن الكتاب والمفكرين العرب الذين عاصروه.

سليم خياطة: مفكر غيبه اجتهاده!

عندما عادت عائلته من المهجر الامريكي عام ١٩٢٢ كان سليم خياطة في الثالثة عشر من عمره فهو مولود في العام ١٩٠٩ لأبوين سوريين عافت نفسيهما الغربة، فعادا للاستقرار في طرابلس الشام، ولكسب لقمة العيش انشأ الأب مطبعة كان لها دور هام في نشر ثقافة من نوع خاص في بلاد الشام وهي مطبعة الفن الحديث.

تلقى سليم تعليمه الأولي في المهجر الامريكي، وأكمله في طرابلس الشام بعد عودة العائلة الى الوطن، واستقرارها فيه، ثم التحق بجامعة دمشق طالباً في معهد الحقوق وقد استوقفته الحالة العربية كجزء من حالة الشرق، ومع روح شابة متوثبة ميالة الى البحث والتدقيق والعدالة، التفت سليم خياطة الى الأفكار، فاختار الحياة في حماها، وتبنى فكر التنوير الديمقراطي الاتجاه، قبل أن ينخرط في تيار الاشتراكية العلمية.

ومنذ البداية رفض الخياطة أن يكون مثقفاً تعبوياً وتابعاً، وتلك صفة سترافقه كل حياته تلصق باسمه حتى بعد وفاته مما أدى الى تجاهله وإهماله حياً لفترة طويلة تزيد عن عشرين عاماً، والى التجهيل به لأكثر من عقدين ونصف العقد بعد وفاته، عقاباً على رفضه أن يصير كاتب السلطان الحزبي الأحمر !

مسيرة الفكر الحر:

بدأت مسيرة الفكر الحر عند سليم خياطة بعد مغادرتـه مقـاعد الدراسـة في معهد الحقوق بدمشق، وتصديه لمهمة ادارة مجلـة «الدهـور» التـي كـان يصدرها ابراهيم حداد وهي مجلة ثقافية - ديمقراطية، كـان صدورهـا متعثراً قبل أن يتولى خياطة رئاسة تحريرها واصدارها في تموز (يوليو) ١٩٣٤.

لقـد استنهضت تجربـة اصـدار «الدهـور» فـي خطهـا الفكـري غضبـة الانتداب الفرنسي وأجهزته، فتم اعتقال سليم خياطة ونفيه الـى فلسـطين، مـن أجل تعطيل «الدهور» ودورها في التنوير الذي اختاره لها محررها لكن حـس الرجل وفطنته، كانت تدفع بـه نحـو استمرار مشـروعه بصيغـة أعمـق وأبعـد شمولاً وأثراً وفي هذا كانت مسـاهمته فـي مؤتمـر معلقـة زحلـة عـام ١٩٣٤ الذي جمع كتاباً ومفكرين وأدباء عرب توافقوا على وثيقـة فكريـة - سياسية تدعـو الـى حريـة العـرب واستقلالهم ووحدتهـم ووضـع سـليم خطوطهـا الاساسية، وكـانت الاسـاس فـي مشـروع مجلـة «الطليعـة» الدمشـقية ومـن أهدافها المعلنة «أنها تريد أن تعمل على احيـاء أجمـل وأمجـد مـا فـي تـاريخ العرب وأدبهم وعلمهم وفكرهم..» وكان بين ادارتها وكتابها كبـار مفكـري ومثقفي العرب تلك الأيام مثل كامل عياد وعصام الدين حفني، ناصف، وطـه حسين، رئيف خوري، ميشال عفلق، امين الريحاني، توفيق عـواد، قسـطنطين زريق وآخرون بينهم سليم خياطة الذي كتب مـن منفـاه فـي مجـلات سـوريا ومصر ولبنان وفلسطين ومنها كانت «الطليعة» التي استحوذت اهتماماً أوسـع من جهده وفكره وبخاصة بعد عودته من منفاه.

أفكار على أرض الواقع:

استغل سليم خياطة فترة المنفى والسفر سائحاً، فحولهـا الى تجربـة علم ومعرفة وتأمل واختبار لمنظومة الأفكار التي آمن بها. فجعـل المنفـى والارتحال رحلة اطلاع وتدقيق في العالم من حولـه لكنـه لاحـظ قبـل أن يغادر «ليس لي قبل السفر إلا أن أرسل تحيتي العاطرة الى أبناء البلاد التـي أحببتها وتطوعت كأديب للنضال في سبيل تحريرها، وهي البلاد التي نشأ فيها أجدادي، وهجرها لظلـم حاكمهـا آبـائي، والتـي أطـرد منهـا اليـوم، فأتركها رغماً عني وأنا واثق بأنه ليست من قـوة تسـتطيع أن تمنعنـي عـن متابعة العمل التحريري الذي يضطلع بـه المنـاضلون الاقويـاء فـي الاقطـار العربية وفي العالم أجمع».

تنقل خياطة بين بلاد كثيرة، كـان منهـا فلسـطين وايطاليـا والاتحـاد السوفياتي وسويسرا وفرنسا والمانيا، اضافة الى امريكا، وفي غضون ذلـك وقف يتأمل الظواهر مدققـاً فيهـا مدونـاً ملاحظاتـه كمـا خـاض نقاشـات وحـوارات مـع المرافقيـن وأشـخاص التقـاهم، وجعـل ذلـك كلـه مجـالاً لمراجعة أفكاره وتدقيقها في ضوء معطيات الواقع ومحاكمتها مع أفكـاره وآراء الآخرين.

كانت ثمرة تلك الرحلة العتيدة هامة للغاية أكثر من مقالات كتبهـا، ودراسات قام بها وصدرت تاليا في كتب أبرزها «علـى أبـواب الحـرب» و«حميات في الغرب» و«الحبشة المظلومة» وغيرها. وكانت ثمرة تلـك المرحلة الأهم «حالة منهجية» أساسـها «الاحتكـاك المباشـر »، محاولـة جريئة من «شرقي» ليصير صاحب رأي في العالم وأحواله، بعـد أن يتطلـع

حوله ليبحث عن المؤثرات التي تصطدم بشرقيته وتتفاعل معها، على اخراج رأي بدأ يتشكل جنينا في فكري وينشأ، منذ أن تركت صومعة الأمم الغابرة، وأصبح لي بعض اهتمام وتتبع لوقائع العصر والحياة الحاضرين... وقد كتب خياطة تاليا «جاء دورنا لكتابة التاريخ».

كتابة التاريخ وتحليل الواقع:

إن كتابة التاريخ التي أشار اليها سليم خياطة، كانت تعني رسم صورة واقعية، بل هي تحليل للواقع السائد في ثلاثينات القرن العشرين، ولاسيما في ظل استشراء الظاهرة الاستعمارية، وعدوانية الرأسمالية وسعيها نحو اعادة اقتسام العالم من جديد وما أفرزه من ظواهر وصراعات، كاشفاً في آن معاً عن أعمق الروابط السياسية - الاقتصادية بين الرأسمالية الغربية وافرازاتها من الصهيونية الى الفاشية والنازية وغيرها من الظواهر العنصرية.

ولاحظ خياطة مدققاً من خلال المعطيات والوقائع بما فيها من أرقام ومستندات طبيعة النشاطات التي تمارسها الصهيونية - اليهودية وتنظيماتها في فلسطين التي تضم مستوطنين تم جلبهم من أنحاء العالم المختلفة بعد أن أشبعتهم تعبئة وتحريضاً ودعاية ووفرت لهم مستويات حياتية أفضل بكثير من حياة الغالبية العظمى من سكان البلاد الاصليين الذين كانت تحيط بهم ظروف الحياة الصعبة مترافقة بنتائج عقود طويلة من الهيمنة العثمانية، بما فيها من جهل وتخلف ومرض وفقر وأمية، وهي ظروف رسخها الانتداب البريطاني، بما هو وجود استعماري رأسمالي، ينبغي الكفاح ضده طبقاً لما نادى به سليم خياطة.

تدقيق وتصويب:

إن صحة التحليل العام في رؤية سليم خياطة للصهيونية وروابطها مع الاستعمار الغربي لم تمنعه من العودة الى التدقيق في ذلك التحليل في محاولة للنفوذ الى تفاصيل أدق في محتويات الواقع وطبيعة الصراعات الجارية فيه وفي هذا الموضوع كتب يقول: «إن كلامي عن الصهيونية اعتراه قليل غفلة لجانب الواقع..» من حيث حرب الصهيونية ضد عرب فلسطين والتي تبرز تجلياتها في عوامل منها افقار الفلسطينيين وتشريدهم وانتزاع اراضيهم ومنح فرص العمل المتاحة لليهود الذين يجري استقدامهم وتوطينهم في فلسطين والتي يعارض أهلها «هذا الطغيان» بمظاهر سلمية، يكون الرد عليها بايقاع مئات القتلى والجرحى في الأوساط العربية وبطبيعة الحال فإن واقع الصهيونية في فلسطين وعلاقاتها مع البريطانيين من جهة واليهود من جهة الأخرى تجعل الحرب أساس المقاومة للصهيونية والاستعمار البريطاني وهذا يتضمن - كما يرى الخياطة - التحاق اليهود من مقاومي الصهونية بالمقاومة العربية، خلافاً لما كان قد توصل اليه سابقاً من ضرورة التحاق «العرب» بـ«الطبقة العاملة اليهودية» و«نضالها» وهو رأي كان بعض دعاة «التحرر الوطني» يطرحونه وينادون به، وكان هذا يرضي اليهود لأنه كان يعني الحفاظ على خط الدعاية المضللة التي أطلقهتا الصهيونية وتباناها اليساريون الصهاينة وانخدع بها بعض العرب من دعاة «الأممية البروليتارية»!

لقد كانت مراجعة خياطة في هذه النقطة لفتة مبكرة نحو فهم أعمق لعلاقات القومي - الطبقي ولطبيعة الصراع وقواه كما هي في الواقع

وليس على أساس الشعارات والتوجيهات الصادرة عن المرجعيات البرولتيارية، وهذا من الأمور التي أثارت الغضب على سليم خياطة ودفعت الى تهميشه ثم تجاهله في حياته والتجهيل به وبأفكاره وتجربته بعد وفاته معدماً ومجهولاً.

إن تطلع سليم خياطة الى غد عربي مختلف عما كانت علية الحال في عهده، دفعه في كتاباته الى ادانه واقع العرب بكل أبعاده السياسية والاقتصادية - الاجتماعية ونمط حياتهم وأضاف الى ذلك رفضه استمرارها فيما هم عليه من بنى وعلاقات متخلفة، لكنه مع ذلك رفض نزعة التغريب التي كان يطالب بها البعض من دعاة التحديث على النمط الغربي، وبين الحالتين اختار سليم خياطة الحل المقبل في معالجة الواقع العربي، فطالب بتقديم قيادة «عناصرها جديدة، تخرج من قلب الشعب وعقل الغرب، تنطوي على ملكات اخلاص، واستقتال ومناعة لاتلين لقسوة الحياة، مزايا لم يدركها سوى كبار المسيرين للحركات الكبرى والحائزين على قدرة، قوة، تربية محنكة، على فهم عميق للحقائق وللناس، للسياسات...».

أما في موضوع صراع العرب والصهيونية ومستقبله، فقد خلص الى القول أن الصهيونية «لايفيد ضدها عقل وحق اعزلان. إذا أراد الشعب العربي الحياة عليه أن يقاتل. لأن الجدال كالكتابة على الماء والمقالات النادبة أقل أثراً من الهواء...» هذه الخلاصة كتبها سليم خياطة قبل ستين عاماً مضت وهو ما تؤكده التطورات التالية، لكن بعض العرب وبينهم فلسطينيون لم يفهموه، أو أنهم لايريدون.

عارف العارف: المؤرخ والسياسي

بين السياسة والتاريخ أكثر من رابطة، وإذا كانت السياسة في أحد وجوهها تصويب للتاريخ - من وجهة نظر معينة - فإن التاريخ هو تكريس للسياسة، وهو خازن وحافظ لها، ينقلها عبر أجيال البشر، وبقاع الجغرافيا في خط يبدأ في نقطة محددة، ولاتنتهي إلا مع «نهاية التاريخ».

عارف العارف ربط بين التاريخ والسياسة، جمعهما بإحكام فكان مؤرخاً وسياسياً، وبين هاتين الصفتين، برزت صفات أخرى، وتوضحت خلال حياته، التي امتدت ما بين العقد الاخير من القرن الماضي، والثلث الأخير من القرن الحالي، في ترحالها واستقرارها.

مولده وبداياته:

ولد عارف العارف في عام ١٨٩٢ في مدينة القدس، وتابع فيها تعليمه الأساسي حتى نيله الشهادة الثانوية، وانتقل بعدها الى عاصمة الدولة العثمانية استانبول، ليحصل منها على شهادة جامعية في الادارة والاقتصاد والسياسة. انفتحت الآفاق رحبة أمام عارف العارف أثناء دراسته في استانبول، بعد أن اندمج في حياتها العامة وفي الأوساط العربية بصفة خاصة، فاشتغل بالصحافة أثناء دراسته الجامعية، ومارس نشاطاً

ثقافياً وسياسياً في الأوساط العربية، فتم انتخابه عضواً في ادارة «المنتدى الادبي» وهي إحدى الجمعيات الثقافية-السياسية التي شكلها العرب - العثمانيون للدعوة الى توحيد العرب واستقلالهم.

بعد نيله الشهادة الجامعية عام ١٩١٣، تم تعيينه مترجماً في وزارة الخارجية وقضى فيها نحو عام قبل أن تنشب الحرب الأولى، ويدخل الكلية الحربية ويتخرج ضابطاً. أرسله الأتراك للحرب على جبهة القفقاس الروسية - التركية، وفي إحدى المعارك أسرته القوات الروسية عام ١٩١٥، وجرى سوقه الى المنفى في سيبريا، حيث مكث ثلاث سنوات تمكن خلالهما من إجادة اللغتين الروسية والألمانية، فأضافهما الى مخزونه اللغوي من التركية والانكليزية واللغة العربية الأم.

الانخراط في الحياة العامة:

فر عارف من سجنه عند قيام الثورة الشيوعية في روسيا القيصرية عام ١٩١٧، واتجه شرقا نحو اليابان عبر منشوريا، ثم عاد مترحلاً عبر الصين الى الهند ومصر ثم الى فلسطين ليستقر هناك، ويبدأ عمله العام في الصحافة، فأصدر جريدة «سورية الجنوبية» وهي أول جريدة عربية صدرت في القدس، ورفعت لواء المقاومة ضد الاحتلال البريطاني، ومشروع الاستيطان اليهودي في فلسطين، مما أوغر عليه صدر البريطانيين، فاعتبروه محرضاً على انتفاضة نيسان (ابريل) عام ١٩٢٠، وجرى اعتقاله وإغلاق الجريدة، لكنه تمكن من الفرار الى دمشق، ليبدأ فصلاً جديداً وهاماً في حياته العامة.

أثناء وجود عارف العارف في دمشق، تم انتخابه عضواً في المؤتمر

السوري الذي كان أول تجربة برلمانية في المشرق العربي، وقد أصدر بياناً أول أعلن فيه وحدة سوريا واستقلالها وتنصيب فيصل بن الحسين ملكاً عليها، ثم لجأ الى الاردن مع رجالات الحركة القومية العربية الذين غادروا سوريا بعد احتلال القوات الفرنسية لدمشق في أعقاب معركة ميسلون في تموز (يوليو) ١٩٢٠.

عاد الى فلسطين بعد أن رفع البريطانيون الحظر على رجوعه، وتسلم عدة مناصب ادارية منها قائمقام جنين، ونابلس، وبيسان، ويافا، غير أن المقام لم يطل به هناك، إذ استدعاه الأمير عبد الله في عداد الذين استعان بهم من السوريين والفلسطينيين لتنظيم شؤون امارة شرقي الأردن، وهناك بقي عارف العارف ثلاثة أعوام بصفته سكرتيراً عاماً لحكومة شرقي الاردن، وعضواً في المجلس التنفيذي، وأدت معارضته للمعاهدة البريطانية - الأردنية الأولى عام ١٩٢٨، الى إبعاده الى منصب اداري هامشي قضى فيه عشرة أعوام، حيث تم تعيينه مديراً لمنطقة بئر السبع، تم الحاقها بثلاث سنوات أخرى قضاها في غزة، وفي غضون تلك السنوات مرت معظم سنوات الحرب العالمية الثانية، وقبل نهايتها انتقل عارف العارف الى رام الله، ثم الى القدس مساعداً لحاكم اللواء، وهناك بقي حتى نهاية الانتداب البريطاني عام ١٩٤٨.

من السياسة الى التاريخ:

بعد كارثة فلسطين تولى عارف العارف عدة مناصب رسمية في الأردن ما بين عام ١٩٤٩ واحالته الى التقاعد وغلب الطابع الاداري على هذه الوظائف، الأمر الذي كان يشير الى نهاية عمله السياسي أو اهتمامه

بهذا الجانب من النشاط العام، وربما كان في ذلك اشارة أو تأكيد للفشل - أو الاحباط - السياسي الذي أصاب الكثيرين من أبناء الجيل المنتمي اليه عارف العارف من رجالات الحركة القومية العربية.

برز اهتمام كبير لدى عارف العارف بالحياة الواقعية منذ بدايات حياته العامة مراقبة وتدقيقاً وتحليلاً، وفي اطار ذلك درس العارف عادات البلد في شرقي الاردن منذ أوائل العشرينات، فكان كتابه «القضاء بين البدو» ١٩٣٣، تبعه نتاج آخر يتصل بواقع بدو فلسطين وهو «تاريخ بئر السبع وقبائلها» ١٩٣٤، وبعده «تاريخ غزة» ١٩٤٢، و«الموجز في تاريخ عسقلان» ١٩٤٣، و«رؤياي» ١٩٤٣، «تاريخ الحرم القدسي» ١٩٤٧، و«المسيحية في القدس» ١٩٥١، «تاريخ قبة الصخرة والمسجد الاقصى» وبعد ١٩٥٨، «المفصل في تاريخ القدس» ١٩٦١.

غير أن الأهم في نتاجات عارف العارف المؤرخ والسياسي كتابان أولهما كتاب «النكبة» ويقع في سبعة أجزاء صدرت متوالية بين عامي ١٩٥٦ - ١٩٦٢ وفيه تناول الأساسي في تطور القضية الفلسطينية، والكتاب الثاني «أوراق عارف العارف» الذي اختتم به حياته في الكتابة والتأليف.

لقد أحاطت التباسات في الجانب السياسي من حياة عارف العارف، ولاسيما في علاقاته مع الملك عبد الله وتقربه من الهاشميين، مما جعل الجانب السياسي في حياته «الفلسطينية» محاط بهمود في بعض وجوهه، غير أن موقف الرجل في موضوع الصراع العربي- الاسرائيلي، لم يكن يحتمل أي لبس أو غموض في وقوفه ومشاركته في العمل الوطني العام

لصالح القضية الفلسطينية، وصراعها مع مشروع الاستيطان اليهودي.

وفي هذا الجانب تبدو حياة الرجل اعتيادية، أو هي غير مميزة عن أبناء جيله سواء في شقها «السوري» أو في الشق «الفلسطيني»، والاستثنائي في حياته، كان في كتاباته ونتاجاته الفكرية التي أتت نتيجة لمعاينته الواقع ومعايشته ثم تحليله، واستخلاص نتائجه، وفي هذا المجال اتخذت نتاجاته في أغلبها خطاً موضوعياً - علمياً، وكان في ذلك «أحد كبار المؤرخين الذين أنجبتهم فلسطين في القرن العشرين» كما وصفته الموسوعة الفلسطينية.

علي ناصر الدين:
حياة في قلب القضية

من بين الرعيل القومي الأول الذي عاش وعايش القضية العربية في بدايات القرن علي ناصر الدين، وقد قدم الرجل تجربة متميزة غنية بمحتواها ومجرياتها تركت أثراً واضحاً في الأحداث المتوالية التي شهدها المشرق العربي، دون أن ينال الرجل حظه من التقييم الموضوعي الذي يستحقه من جيله، بل ومن جيل التابعين في النخبة العربية المشرقية.

مولده ونشأته:

ولد علي ناصر الدين في «بمريم» في منطقة حمانا اللبنانية عام ١٨٨٨، وتلقى تعليمه في كلية بيروت العثمانية حيث تخرج منها عام ١٩١١، فأتقن الى جانب العلوم التي تقدمها الكلية اللغتين الفرنسية والانكليزية الى جانب اللغة الأم العربية، وتنقل محتاراً بين أوربا وافريقيا، لكنه عاد تالياً ليشارك في العمل القومي العام في التعامل مع القضايا التي كانت تجتاح المشرق العربي، وتطرح عليه تحديات كبرى، والمدخل الى ذلك كان مشاركته في الثورة العربية الكبرى لتحرير المشرق العربي من سيطرة الأتراك العثمانيين، وبناء الدولة العربية المأمولة.

وتردد على مدى سنوات في اختيارات ميدان عمله مابين الصحافة والسياسة وهو أمر طبع حياته كلها واهتمامه في المشاركة بمعالجة الشأن العام والنشاط القومي العربي ومستوياته المختلفة.

وفي ميدان الصحافة والأفكار أسس في بداية العشرينات (١٩٢٢) في بيروت جريدة «المنبر» التي اتخذت خطاً وطنياً معادياً للانتداب الفرنسي، وكان ذلك سببا في قيام الفرنسيين بإغلاق الجريدة بعد أقل من عام على صدورها.

وبعد اعتقاله بسبب نشاطاته الوطنية، قام الفرنسيون بإبعاده خارج أراضي الانتداب الفرنسي في لبنان، فأقام في حيفا، وفتح هناك خطاً على جريدة «الكرمل» وكان يصدرها هناك نجيب نصار، وتوالت مقالات علي ناصر الدين من أجل التحرر الوطني، وتحقيق أهداف الحركة القومية العربية في الاستقلال.

وجدد ناصر الدين في العام ١٩٢٨ نشاطه الصحافي بعد توقف مرحلي، فتولى تحرير جريدة «اللواء» في طرابلس شمال لبنان، وكعادة الانتداب في تصديه للصحافة الوطنية العاملة من أجل القضية العربية، توقفت «اللواء» فغادر ناصر الدين عائداً الى فلسطين، وهناك تولى عام ١٩٣٣ رئاسة تحرير «الجامعة الاسلامية» الصادرة في يافا وحولها مجموعة من الشباب القومي العربي، لكن البريطانيين أخرجوه من هناك دافعين به للعودة الى لبنان، حيث استقر في «قرنايل».

وفي الخط السياسي من نشاطات علي ناصر الدين، كانت التجربة غنية وواسعة، بدأت تأخذ ملامحها مع مشاركته في تأسيس «عصبة

تكريم الشـهداء» عـام ١٩٢٧، الذيـن قدمـوا حيـاتهم مـن أجـل التحريـر والاستقلال، وشـارك بعـد ذلـك بـأعوام فـي أعمـال المؤتمـر الاسـلامي العالمي بـالقدس عـام ١٩٣١، والـذي انعقـد علـى هامشـه مؤتمـر قومـي عربـي، حـاول المشـاركون فـي تنظيمـه وأعمالـه تعزيـز وتقويـة الأنشـطة المتعددة للنخبة العربية في مسـاعيها مـن أجـل التحـرر ومقاومـة مشـروع الاستيطان اليهودي في فلسطين.

إن الأهـم فـي النشـاطات السياسـية لـ «علـي نـاصر الديـن» كـانت مساهمته الى جانب مجموعة من النخبة العربية خلق تنظيم سياسـي عربـي قوي وفعال، وجـاءت المحاولـة فـي مؤتمـر «قرنـايل» المنعقـد فـي عـام ١٩٣٣، وولدت في سياقها «عصبـة العمـل القومـي» وفـي هـذا المؤتمـر شارك سوريون وفلسطينيون وعراقيون ومصريـون، وقـام بنيـان «العصبـة» علـى مجموعـة ثوابـت مـن أبرزهـا أن «العـرب أمـة واحـدة» و«العروبـة روحية، تصنع اخوة يتساوى فيها العرب بالحقوق والواجبـات» و «الامـة العربية جسم اجتماعي واحد...» «والبلـدان العربيـة بكلتيهـا وطـن عربـي واحد»و «القومية العربية، تنبذ كل ماعداها من العصبيات الطائفية والقبلية والاسرية والاقليمية».

وفي ميدان الأهداف دعت العصبة الى العمل «لإقامة نظـام اقتصـادي عـادل وشامل، يضفر فيه كل مواطن بحقه المتناسب مع عمله» وهي «تحـارب الجهـل والفقر والفوضى» على الدولة يقع عبء اقامة «المشـاريع الرئيسية الكبرى» الى جـانب تعميـم «التعاونيـة القوميـة»، وإن نهـوض الأمـة يتطلـب جهـد ومشـاركة «الرجل والمرأة» في النشاط العام من أجل بلوغ الأمة أهدافها من خـلال «تنظيـم

شعبي شامل». وقد تولى علي ناصر الدين رئاسة «عصبة العمل القومي» وكان من المشاركين في التجربة الشيخ عبد الله العلايلي العلامة والمفكر المعروف.

المفكر والمناضل العملي:

طبعت انشغالات علي ناصر الدين بالصحافة والسياسة حياته بمتابعة ومعالجة القضايا العامة، فبرز مفكراً كتب الكثير، واستولد من القضايا التي تابعها على مدار حياته العديد من الآراء والأفكار كان من ثمارها عدد من المؤلفات أبرزها «قضية العرب» وصدر في ثلاث طبعات أولهما عام ١٩٤٦، «والثائرون العرب في التاريخ» وهي سلسلة تصدت لمعالجاة الاختلالات في التاريخ العربي، وصدرت على هيئة كتب تناولت شخصيات عربية يمتد وجودها عميقاً في التاريخ العربي، وأصدر العديد من الكتب السياسية منها «هكذا كنا نكتب» و«الدولة العربية الاتحادية» و«منحة العراق والاستعمار الروسي» و«مشروع الاتحاد العربي» و«وسائل الوحدة الوطنية في لبنان»، ومن ترجماته «مصطفى كمال أو جنون الأبطال» و «هتلر واليهود» و«الصحافة».

وقد ترافق نتاجه في ميدان الفكر مع تأسيسه «دار الحكمة» عام ١٩٥٥ وهي مؤسسة للنشر تولى رئاسة مجلس ادارتها مع آخرين من رجال الفكر من جملة أهدافها «بعث التراث الفكري العربي» و«اعادة كتابة التاريخ العربي بشكل علمي صحيح» والجانب العلمي النضالي في حياة علي ناصر الدين كان واضح كغيره من النشاطات التي مارسها، ففي حرب فلسطين بين عامين ١٩٤٧-١٩٤٨، ساهم الرجل الى جانب فوزي القاوقجي في إنشاء «جيش الانقاذ» وتنظيمه، وتولى الى جانب

ماسبق في هـذه التجربـة بـإدارة الاذاعـة العربيـة المرافقـة لجيـش الانقـاذ، واشترك علمياً في كثير من معارك حرب فلسطين ومنها معارك «القـدس» و«باب الواد» و «اللطرون» و «الجليل».

وكانت المحصلة الاجمالية لنشاطات علي ناصر الديـن أنـه تعـرض للملاحقة والاعتقال والسجن على أيـدي الفرنسيين فـي سـوريا ولبنـان، وتكرر الأمر في فلسطين على أيدي البريطـانيين، كمـا تعـرض الـى النفـي والابعاد مرات كثيرة وضحى بثروته التي ورثها عن عائلته في سـبيل عملـه الوطني والقومي وعاش بقية عمره حياة الكفاف على حدود الفقـر والعـوز والمرض قبل أن يغلق عينيه في نيسان (ابريل) ١٩٧٤.

لقد أكد علي ناصر الدين بصورة عمليـة انتمـاؤه الـى التيـار القومـي العربي، عندما سئل مرة عن رسالة «القوميـين العـرب» قـال هـي «رسـالة القوة والحق والخير للعرب، ثم الى الناس كافة»، ويريد القوميـون العـرب من وراء ذلك، أن يخلقوا من الناشئة العربية ذكوراً وإناثاً جيلاً قوياً صالحاً جريئاً خيراً عاملاً... متماثل الشعور، موحد الأهـداف، صحيـح التفكـير، عالي الهمة، متين الأخلاق، «يحترم نفسه، ويقوم بواجبه، ويعمـل لإنشـاء كيان قومي عربي موحد، أي دولة عربية اتحادية، تحارب الجهـل والفقـر والمرض والظلم...».

عبد الرحمن الشهبندر
في ثورة سوريا الكبرى

يكاد يكون من المستحيل الفصل بين الصفات والامكانيات الشخصية لعبد الرحمن الشهبندر، والدور الذي لعبه في الثورة السورية الكبرى، ذلك أن أهمية دوره وتفرده إنما تتصل بصفاته وإمكانياته التي جعلت وجوده في الثورة وفي موقع القرار منها أمراً نوعياً، وليس مجرد رقم في عداد المشاركين في الثورة أو في قطاع أو نشاط من أنشطتها.

طريق الى الزعامة:

ولد عبد الرحمن الشهبندر في ٦ تشرين الثاني /نوفمبر/ سنة ١٨٧٩ في دمشق، لأسرة متوسطة فكان لهذا الأمر تأثير على الحياة السياسية للإبن، الذي لم يكن أيضاً من أبناء ملاك الأرض بعكس القسم الأكبر من الوطنيين المعاصرين له.

درس الشهبندر في «الكلية السورية الانجيلية» في بيروت «الجامعة الأمريكية لاحقاً» وعاد الى دمشق عام ١٩٠٨. وعمل طبيباً بالإضافة الى نشاطه في الحركة القومية العربية، وتزوج عام ١٩١٠، من سارة ابنة أحد وجهاء دمشق تقي الدين بك المؤيد العظم وقبل هذا الزواج لم يكن

للشهبندر عصبية عائلية تسنده في نشاطه السياسي الوطني، ولعب زواج الشهبندر «ابن الطبقة الوسطى» من عائلة ذات عصبية ونفوذ وجاه دوراً في مسار الخط السياسي للشهبندر.

لمع الرجل مفكراً وسياسياً منذ مطلع حياته العملية، وشارك بهمة في الأنشطة التي كان يمارسها رجالات الحركة القومية العربية ضد الاحتلال التركي، وبسبب تلك الأنشطة تشرد الشهبندر خارج بلده، وقد عاد مع دخول القوات العربية دمشق، وانخرط بحماس ونشاط في المؤتمر السوري الذي كان بمثابة هيئة نيابية في البلاد، وتم اختياره وزيراً للخارجية الى جانب وزير الحربية يوسف العظمة في حكومة هاشم الأتاسي، بهدف تصليب مواقف الحكومة في مواجهة الداعين للتفاهم مع فرنسا، وضد محاولات الأخيرة بسط انتدابها على سوريا طبقاً لإتفاقية سايكس - بيكو الانكلو - فرنسية.

لقد نظم الشهبندر وقاد عدداً من المحاولات السياسية في الوطن والمنفى، كان بينها تأليفه «حزب الشعب» في النصف الأول من عام ١٩٢٥ ليكون حزباً علنياً يقود النضال الوطني ضد الفرنسيين، وتلك واحدة من السمات الرئيسية لشخصية ونشاط الشهبندر، وبسبب هذه الأنشطة، صدر بحقه حكماً بالإعدام مرتين من قبل الفرنسيين كانت الأولى عند دخولهم دمشق بعد معركة ميسلون عام ١٩٢٠، والثانية ابان انخراطه في الثورة السورية الكبرى، كما أصدرت محكمة فرنسية عليه حكما بالسجن لمدة عشرين عاماً بعد زيارة المبعوث الامريكي «مستر كراين» مندوب بعثة الاستفتاء حول مستقبل سوريا، حيث قام الشهبندر

بدور هام في حشد وتفعيل الرأي العام في سوريا، لإبراز معارضته للانتداب الفرنسي، وزج به في السجن متنقلاً ما بين قلعة دمشق وبيت الدين، وجزيرة أرواد لتسعة أشهر.

إن الرجل بما كان يمتلك من إمكانيات وعلاقات داخل البلاد وخارجها، استطاع أن يراقب تطورات الوضع في البلاد، وبطبيعة الحال فإن الرموز الفاعلة في تلك التطورات، كانت تتطلع هي الأخرى نحو الشهبندر ليس بصفته واحداً من رجالات الحركة الوطنية فقط، بل بصفته «الزعيم» وهو لقب انتزعه الشهبندر من الشارع الوطني، ومن وسط النخبة الاسياسية، وصار كافياً للدلالة على الشخص..

وإذا كانت مناطق سوريا عامة شهدت مقاومة للوجود الفرنسي في السنوات الاولى للانتداب، فان منطقة جنوب سوريا وبخاصة «جبل الدروز» «جبل العرب» تميزت في هذا الاطار، وبدا ذلك كإمتداد لنزعة تحدي السلطة التي مارسها سكان الجبل ضد الدولة العثمانية وسياساتها، وهيأ الوضع على ماهو عليه: تحدي السلطة من جهة، والعداء للفرنسيين من جهة ثانية للثورة، في وقت بلغت سياسة فرنسا، وممارساتها تجاه سوريا والسوريين حدوداً لايمكن القبول بها، وأدى هذا الوضع الى قيام اتصالات بين الشهبندر ورجالات «جبل الدروز» ولعل الأهم فيها كان في أيار/مايو ١٩٢٥، عندما اجتمع في منزل قاسم الهيماني صاحب جريدة «الفيحاء» بدمشق حمد الاطرش الى الشهبندر، وتم التداول حول ضرورة اشعال الثورة في وجه الفرنسيين وتكررت الاجتماعات في منزل الشهبندر بدمشق وحضرها عدد كبير من قادة الجبل بينهم العديد من آل

الأطرش وسيف والعيسمي، وتم خلالها الاتفاق على تحقيق الوحدة والسعي من أجل الاستقلال.

غير أن التطورات الأهم، جاءت على خلفية العصيان المسلح الذي بدأه سلطان الاطرش في أعقاب اعتقال بعض قادة الجبل، مما أدى الى معركة بين الفلاحين الغاضبين والجنود الفرنسيين في «الكفر» أواخر تموز /يوليو، كان من نتائجها مقتل أكثر من مئتي جندي فرنسي وقتل أربعين من الفلاحين، وكان ذلك ايذاناً ببدء الثورة.

فالفرنسييون صار عليهم أن يردوا بعنف ليعيدوا فرض هيبتهم المهدورة والفلاحين الدروز الذين كسبوا المعركة وغنموا منها أسلحة وذخائر صار من الصعب عليهم التراجع، ببساطة وهكذا كان، حيث حشد كل طرف ما استطاع لخوض معركة حسم القوة، ورغم أن ميزان القوى كان لصالح الفرنسيين بصورة لاتقبل الجدل، فإن الاستبسال والصدفة لعبا دورهما فأصيبت حملة قوامها أكثر من ثلاثة آلاف جندي فرنسي بهزيمة ساحقة بعد ضرب مؤخرتها وهكذا انتقل الحديث الى توسيع الثورة ومدها نحو بقية الاصقاع، وحدث ذلك في بداية آب/اغسطس ١٩٢٥عقب معركة المزرعة.

وانفتحت قنوات الاتصال الجدي من أوسع الأبواب بين الشهبندر وقادة الجبل، وكان في عداد ذلك عدا الاتصالات المباشرة رسائل حملها الموفدون في اتجاهين، ولعل الأهم في المحور الثاني ماحمله كيوان الى الشهبندر، ومانقله توفيق الحلبي وأسعد البكري وزكي الدروبي الى قادة الجبل، وزادو عليه، أن عقدوا اتفاقاً تفصيلياً يتعلق بتطور الثورة ومدها

ومواقف الأحزاب منها وبخاصة «حزب الشعب» الذي يتزعمه عبد الرحمن الشهبندر.

وتشير مذكرات الشهبندر الى اجتماع العشرين من آب/ اغسطس، الذي عقده قادة «حزب الشعب» وتقرر فيه الالتحاق بالثورة على أساس ملاقاة قوات الثورة القادمة من الجبل والدخول بالقوات الى دمشق، وهو أمر أدى انكشافه -حسبما يشير منير الريس أحد قادة الثورة في مذكراته - الى اعتقال الفرنسيين بعض الذين حضروا الاجتماع، فيما استطاع الآخرون النجاة متجهين الى الجبل وفي مقدمة هؤلاء كان الشهبندر.

وفي مواجهة الفشل المؤقت لتحقيق تعاون بين قوات الثورة القادمة من الجبل ومتطوعي دمشق لإقتحام المدينة، استطاع الشهبندر بعد مقابلة سلطان الأطرش في «كفر اللحف» أن يكون شخصية فاعلة في مناقشة وتوقيع اتفاق لمد الثورة الى حماة، وهو اقتراح حمله منير الريس ومظهر السباعي من حماة الى قادة الثورة، وهكذا أخذت تتفاعل وتبرز آثار حضور الشهبندر في الثورة السورية وفي مراكز القرار منها، وهو أمر تكرس في العديد من المعطيات والوقائع.

ولعل من أهم الوقائع، أن الشهبندر كان الأهم والأبرز من كتاب الأدب السياسي للثورة، وفي مقدمة ماكتب رد سلطان باشا الأطرش على دعوة الكولونيل «اندريا» الى إيقاف الثورة، والعودة بالبلاد الى السلم (١٩٢٥/١١/١٥) وأوضح في الرد «أن مطالبينا مبينة، وهي قائمة على الحقوق التي حوتها المعاهدات الدولية والتصاريح الرسمية» وأضاف «أن هذه المطالب تكفل استقلال سوريا».

وإضافة الى نص الرسالة أعلاه الذي أثبتته مذكرات سعيد العاص في متنها، تضمنت مذكرات الشهبندر نص مذكراته الموجهة الى وزارة الخارجية الفرنسية، وفيها تبسيط لأسباب الثورة السورية وأغراضها، مشيراً الى طبيعة الممارسات التي قام بها الموظفون الفرنسيون في سوريا، مقدماً نماذجاً منها تبدأ بالإعتداء الشخصي على الأفراد، ثم فرض الغرامات النقدية، لتصل درجة الاهانة الاجتماعية، وتحدي التقاليد المحلية، مما أدى الى احتقانات، مالبثت أن انفجرت في مواجهة الضغط المتزايد، والقائم على أسس تكرست منذ دخول «غورو» سوريا، وتابعها خلفاؤه بعده، ومن هذه الأسس جمع السلطات في يد المفوض السامي، وخنق الأفكار الحرة، واستغلال البلاد وأهلها الى أقصى حد ممكن.

وأضافت مذكرة الشهبندر أن سياسة الانتداب منعت تطوراً سياسياً سلمياً، بدأ القيام به «حزب الشعب» والذي كان بين ضحايا سياسة القمع والارهاب، واختتمت المذكرة القول «أن فرنسا لن تحافظ على نفوذها في هذه البقعة من بقاع الشرق بقوة السلاح. وإنما تستطيع أن تفعل ذلك بإنتهاجها سياسية المسالمة واعترافها بحقوق سورية المشروعة، وأستطيع أن أؤكد لكم أن أكثرية الشعب السوري على استعداد للتفاهم مع فرنسا على قاعدة سيادة سورية القومية مع المحافظة على مصالح الفرنسيين». وفي جانب آخر من موقع الشهبندر في ثورة سورية الكبرى انشغاله في تنظيم أمور الثورة سواء في محيطها الوطني أو في بناها وعلاقاتها الداخلية، وتشير رسالة سلطان الأطرش الى سعيد العاص الى أنه تم التداول مع الشهبندر حول موضوع تشكيل «حكومة

وطنية بالمركز الذي يختاره أهل البلاد»، وهـو أمـر يتناسـب واهتمامـات وأفكار الشهبندر أكثر من غيره في مراكز القرار في قيادة الثورة.

وبصورة مؤكدة، فـإن متابعـة القضايـا السياسية للثـورة مـن جـانب الشهبندر، لم تكن تعني انعزاله عـن جوانبهـا العسـكرية والتنظيميـة، ففـي رسالة له من السويداء، يشرح الى صبحي دقماق طبيعة الوضع العسكري للثورة أواخر عام ١٩٢٥، وآفاق امتـداد العمليـات العسكرية الـى وسـط البلاد وشمالها. وتشير مذكرات منير الريس الى تصدي الشهبندر لمعالجة بعض الجوانب التنظيمية فـي الثـورة ومنهـا وصولـه مـع مصطفـى وصفـي وآخرين الى الغوطة في نيسان (ابريل) ١٩٢٦ بهدف إعادة تنظيم الثورة.

وهناك عقدت اجتماعات في «بالا» ثم فـي «عقربـا» تقـرر خلالهـا تأليف مجلس وطني من زعماء العصابات والضباط والمجـازين بـالحقوق من الثائرين و«تم انتخاب مصطفى وصفي قائداً عاماً للغوطة» كما جـرى «انتخاب لجنة تنفيذية للمجلس الوطني» و«لجنة أخرى لإعانة المنكوبيـن في الغوطة» و «تقرر إحداث قوة اجرائية ترتبط بالقائد العام..».

كما تشير الوقائع والمعطيات الى اهتمـام الشـهبندر وانشـغاله بـأمور الثورة ومثابرته على البقاء في حيزها الجغرافي، ولهذا نراه يتابع التنقل فـي مواقع الثورة وميادينها في الجبل والغوطة متجولاً بين المدن والقرى مرافقاً الثورة في انتصاراتها وهزائمها، التي كان من أشدها وقعاً معركة السويداء فـي نيسـان (ابريـل) ١٩٢٦، والتـي أدت الـى انسـحاب القـوات شـرقاً، وعقدت سلسلة اجتماعات بين سلطان الأطرش وعبـد الرحمـن الشـهبندر اتفقا بنتائجها الاتصال مع الملك فيصل وتسليمه مذكرة «بمطالب البلاد»

لعرضها على الدول الأوربية وهكذا عقد الاثنان اجتماعاً مع الملك فيصل في «القياسة» على طريق بغداد حضره عدد من الشخصيات السورية والعراقية.

وحاول الشهبندر مااستطاع إعادة تفعيل وتنشيط الثورة بمختلف الطرق، ولكن بدا ظاهراً أن الثورة وضعت رحالها أو كادت مع أواخر عام ١٩٢٦، فكان أن انسحب الشهبندر مع سلطان الأطرش ورفاقهما الى «الأزرق» في الأردن كانسحاب مؤقت وذلك في تشرين الاول /اكتوبر ١٩٢٦، منهياً مشاركته في الثورة التي تابعت عملياتها على نطاق محدود في مناطق وسط سوريا والغوطة، وكانت أخر معاركها في ربيع عام ١٩٢٧.

إن متابعة الشهبندر لتطور الثورة السورية الكبرى أعطاه قدرة على تقييم التطورات الكبرى والمفضلة في الثورة وعلى ممارسة نقد لبعض السلوكيات والأخطاء التي ظهرت هنا وهناك بما في ذلك الأخطاء السياسية، وأكد ذلك في مذكراته «عن الثورة السورية: عواملها، وقائعها، نتائجها» واضعاً بذلك خلاصة تجربته ورأيه في أهم تحرك شعبي مسلح عاشه المشرق العربي في مواجهة نتائج اتفاقية سايكس-بيكو والانتداب الفرنسي على سوريا ولبنان.

لقد تعامل الشهبندر مع الثورة السورية الكبرى بصفته قائداً سياسياً وليس من موقع آخر وتلك قضية يؤكدها -عبر حادثة- منير الريس في مذاكراته عن الثورة، ذلك أنه طلب من الشهبندر معالجة أحد المرضى في الجبل فصاح «أنا هنا لست طبيباً... أنا زعيم سياسي.. ولست أحمل معي أي أداة للطب والتداوي».

نعم هكذا كان الرجل في علاقته بالثورة السورية الكبرى، ولهذا كان الفرنسيون منشغلين بوجوده في الجبل وفي وسط الثورة، فطالبوا منذ البداية باخراجه من هناك وعندما لم تنجح محاولاتهم، بذلوا جهوداً لتوفير ظروف مساعدة لاغتياله عبر محاولة شراء ضمائر مشاركين في الثورة، ولكن جهودهم فشلت أيضاً، وكان من الطبيعي أن تصدر محكمتهم حكماً باعدامه في اطار أحكامها على العناصر القيادية المشاركة في الثورة، مما منع الشهبندر من العودة الى سوريا قبل عام ١٩٣٧، عندما صدرت قرارات العفو. غير أن الأيدي الظالمة، لم تترك الفرصة أمام تلك الشخصية المميزة في فكرها ومستواها المعرفي والسياسي لتنفع بها بلادها، فنظم ظلاميون عملية لاغتيال الشهبندر في العام ١٩٤٠، منفذين بذلك واحدة من أبشع عمليات الاغتيال السياسي في تاريخ البلاد.

عبد الرحمن الكواكبي:
عدو الاستبداد والطغيان

لم يثر أحد من رجال عصر النهضة أسئلة بالقدر الذي أثاره عبد الرحمن الكواكبي، ولا تعددت مسارات تلك الأسئلة التي أثارها بمقدار كبير حول أفكاره وشخصيته وكتاباته ومسيرته على نحو ماكانت الأسئلة التي طرحت حول الكواكبي في عصره وبعد وفاته، وكثير منها مازال قائماً رغم انقضاء اثنين وتسعون عاماً بالتمام والكمال على رحيل الرجل الذي لم يعش سوى ثمانية وأربعين عاماً فقط، لكنها كانت قوية الحضور والتأثير على حد سواء.

في أواسط القرن الماضي، وفي حزيران (يونيو) ١٨٥٤ تحديداً شهدت حلب ولادة عبد الرحمن الكواكبي في بيت مميز من بيوت العلم والنفوذ هو بيت الشيخ أحمد الكواكبي أمين الإفتاء في حلب، وتلقى الكواكبي الابن علوم اللغة والدين في «المدرسة الكواكبية» وقد زاد عليها الأب تعليم ابنه اللغتين الفارسية والتركية الى جانب علوم المنطق والرياضيات والطبيعة وغيرها استكمالاً لمعارف العصر التي لم يكن متاحاً تعليمها إلا للخاصة، تمهيداً لإدخالهم الخدمة في سلك الدولة.

بدأ الكواكبي حياته العملية - كما كان مخططاً لها - بتولي مناصب ادارية هامة في ولاية حلب، لكن نفسه التي تربت على المعرفة ورفض التسلط والطغيان انفت الاستمرار في المناصب الرسمية، فاشتغل بالتجارة والأخيرة لم تستأثر باهتمامه، فبقيت كسابقتها على هامش حياته والتي انشغلت بموضوعين لا فكاك بينهما حركة التجديد الفكري والديني، والاهتمام بحياة الناس ومعاناتهم في بعدها الاجتماعي والسياسي، وهذا ما ميز حياة الكواكبي عن غيره من رواد عصر النهضة العربية.

أما الطريق الى تحقيق الكواكبي طموحاته، فقد تعددت أقنيتها وتنوعت أماكنها، ليس بسبب رغبته، وإنما بفعل ما أحاط بحياته وزمانه من اضطهادات كان الأتراك العثمانيون ورموزهم تجسيداتها العملية، مما جعلهم يحتلون - بما كانوه - نقطة مركزية في انشغالات عبد الرحمن الكواكبي ونشاطاته.

وكان بين أبرز نشاطات الكواكبي اشتغاله بالصحافة وعمره لم يتجاوز الثانية والعشرين عاماً، ثم اتخذ خطوته الأهم بعدها بعامين عندما أصدر عام ١٨٧٨ جريدته «الشهباء» أولى الصحف العربية بحلب فأغلقتها السلطات، ثم أصدر بعدها «الاعتدال» فنالت مصير سابقتها على يد الأتراك العثمانيين بسبب أفكاره المجددة، ومعارضته للسياسة والممارسات القائمة.

ولم يقتصر نشاط الكواكبي في الصحافة في تحديه للظلم والاضطهاد والاعتداء على حقوق وحريات مواطنيه من قبل جهاز الدولة

وقادتها، فصار مرجعاً في المحاماة والقانون، وعمل على تحرير «عرضحال» عن الظلامات التي كان يوقعها رموز المرحلة وقادة النظام بالمواطنين.وبدا من الطبيعي أن ينال نشاط الكواكبي في هذين المجالين غضب السلطات على غرار ما آل اليه الوضع عندما أصدر كلا من «الشهباء» و «الاعتدال» اللتين تم إغلاقهما وهو إجراء لم يكن من الممكن اللجوء اليه في الحالة الأخيرة لمعاقبة الكواكبي، فتم ادخاله السجن بتهمة «محاولة اغتيال الوالي العثماني» و«الاتصال بدولة أجنبية» وأصدر القضاء عليه حكماً بالإعدام في ولاية حلب غير أن ضغط الرأي العام والحاجة لإعادة النظر في محاكمة الكواكبي والحكم الصادر بحقه أجبرت السلطات على اعادة المحاكمة ونقلها الى بيروت، من جانب المحكمة العثمانية هناك ثم إعلان براءة الكواكبي من التهم الملفقة بحقه.

إن حالة الظلم الفادح والاستبداد، وأجواء التحجر والجمود الفكري والديني الذي كان يفرضها العهد الحميدي - نسبة الى السلطان عبد الحميد - على البلاد لم تكن وحدها السبب في خروج عبد الرحمن الكواكبي وارتحاله عن بلاد الشام، بل إضافة الى ذلك رغبته في التعرف على العالم، ومعاينة أحواله و معايشة سكانه وفي هذا كان سفره وتجواله في أنحاء افريقيا الشرقية والجنوبية ومنها الحبشة وارتيريا والصومال، وكذلك في أنحاء آسيا الجنوبية من جزيرة العرب الى العراق وايران وصولاً الى الهند واندونيسيا وسواحل الصين، وسمح له ذلك الاتصال بثقافات ومفكرين ورجال علم وحضارات عديدة، وقد زاد على ما سبق معرفة عميقة بواقع الغرب ونظرته للعالم والمستقبل من خلال كتابات

مفكري الغرب الاوربي - الامريكي الذي لم يتح له زيارته والتعرف اليه بصورة مباشرة.

وكانت القاهرة احدى أهم محطات ترحال الكواكبي بما كانت عليه في تلك الأيام من ملتقى لرجال الفكر والمجددين العرب وخصوصاً القادمين من بلاد الشام «طواعية» أو هرباً من الاضطهاد العثماني وبينهم محمد كرد علي، رفيق العظم، ومحمد رشيد رضا، فاستقر هناك في العام ١٨٩٩، ووجد الطريق سالكة في نشر أفكاره والتعبير عن آرائة المجددة بالكتابة في الصحافة المصرية وخصوصاً في «المؤيد» ومن تلك المحصلة تكونت محتويات كتابيه الهامين «أم القرى» و«طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد» وقد نشرهما لاحقا بإسم مستعار، فيما كانت مقالاته «طبائع الاستبداد» دون توقيع في صحيفة «المؤيد».

تناولت كتابات الكواكبي موضوعات كثيرة لكن الأهم والأبرز كان قراءة الواقع بما فيه من معطيات سياسية، اقتصادية، واجتماعية، والشق الآخر رسماً لما يراه من علاج وتجاوز للواقع في معطياته، وبدا ذلك واضحاً في كتابه «أم القرى» وقد احتوى حواراً حول واقع «الركود المحيط بالأمة الاسلامية، وجاءت المعالجة بالقول أن تجاوز الواقع في «نهضة العرب واعطاء قيادة الاسلام والمسلمين للعنصر العربي» بعد اقامة خلافة عربية - اسلامية.

وفي كتابه الثاني «طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد» ركز الكواكبي جهده على فضح الاستبداد ونظمه وعلاقاته التي ينشرها في المجتمعات مستنداً الى علاقته بالدين والتربية والعلوم وغيرها، ومن ذلك

كانت صياغة مقولات فكرية مميزة قدمها الكواكبي منها قوله أن «الاستبداد..مفسد للدين...» واليها استند في «ما احوج الشرقيين أجمعين.. الى حكماء يجددون النظر في الدين، فيعيدون النواقص المعطلة، ويهذبونه من الزوائد الباطلة، مما يطرأ عادة على كل دين يتقادم عهده فيحتاج الى مجددين ، يرجعون به الى أصله المبين البريء»..

وفي جانب آخر تناول الكواكبي في نتاجه الفكري العلاقات الطردية بين «الاستبداد» وتعميم العلم وشموليته داخل المجتمعات، وفي ذلك كتب يقول «ترتعد فرائض المستبد من علوم الحياة مثل الحكمة النظرية، والفلسفة العقلية وحقوق الأمم والسياسة المدنية والتاريخ المفصل والخطابة الادبية، وغيرها من العلوم الممزقة للغيوم...» وقد ميز بين نوعين من العلوم في هذا الجانب بقوله «المستبد لايخاف من العلوم كلها.. بل من التي توسع العقول، وتعرف الانسان ما هو الانسان، وما هي حقوقه، وما هو مغبون؟ وكيف الطلب؟. وكيف النوال؟.».

وعودة لما أشارت له المقدمة، من أن الكواكبي في حياته وفي كتاباته، وحتى بعد وفاته أثار كثيراً من الأسئلة وهي لم تجد حتى الآن أجوبة لها ومنها تحديد موقعه في قائمة رواد النهضة من حيث هل يمكن اعتباره داعية ومجدداً اسلامياً؟ أم أنه رائداً مبكراً للحركة القومية العربية؟ وهل يمكن إعتباره مصلحاً اجتماعياً واقتصادياً؟...

إن الكواكبي بما كانه وخلفه لنا، ربما كان جمعاً بين هؤلاء جميعا الى جانب مزايا وصفات أخرى هامة، لكن الأمر الأبرز الذي كان عليه وخلفه لنا على وجه الخصوص هو وقوفه الحاسم وتصديه للاستبداد والطغيان.

عبد الحميد الزهراوي:
رائد من عصر التنوير

ولد عبد الحميد الزهراوي في حمص سنة ١٨٧١ من أسرة ارستقراطية متدينة، وتلقى تعليمه الأول من قراءة وكتابة الى جانب اللغتين العربية والتركية وآدابهما وعلوم الدين من فقه وتفسير على عدد من أهم شيوخ عصره الذي شاع فيه صيت رجالات عصر التنوير الاسلامي وفي المقدمة جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده، الأمر الذي كان له تأثير ملموس ولاحق في حياة الزهراوي وأفكاره.

غادر الزهراوي بعد اتمام تعليمه الأساسي الى الاستانة عام ١٨٩١، ثم غادرها الى القاهرة، عاد بعدها الى حمص مروراً ببيروت ودمشق، وأتاحت له تلك الرحلة الطويلة الاطلاع على عوالم جديدة تفاعلت مع جملة من أفكار وعلوم ومعارف تلقاها، وكان من نتيجة ذلك، أن اتجه نحو العمل الفكري، فكانت باكورة أعماله جريدة «المنير» التي أصدرها في حمص، وكان يوزعها سراً بصورة محدودة وكانت مقالات «المنير» متقاربة مع دعوة «جمعية الاتحاد والترقي» التي كان الزهراوي أحد أعضائها، وهي جمعية معادية للاستبداد الحميدي.

المفكر والمصلح:

في عام ١٨٩٦ سافر الزهراوي الى الاستانة، وهناك أتيحت له فرصة أكبر للاطلاع واكتساب معارف أكثر إتساعاً وشمولية في الفكر والثقافة والسياسة، سواء من خلال حركته في مكتبات العاصمة الامبراطورية، أو من خلال صلاته مع النخبة الفكرية هناك، وزاد الزهراوي على ذلك اشتغاله محرراً في جريدة «معلومات» فأخذت تتبدى - في عمله الأخير - شخصية فكرية إبداعية من جهة، وشخصية اصلاحية - تنويرية من جهة أخرى، وتناغمت مع كتابات رشيد رضا التي كان يتوالى ظهورها في «المنار» القاهرية، دون أن يكون للزهراوي ورضا معرفة وصلة مباشرة، طبقاً لما ذكره رشيد رضا.

لفتت نشاطات الزهراوي وكتاباته التنويرية أنظار السلطات العثمانية اليه، فأخذت أجهزتها في التركيز عليه إنطلاقاً من قاعدة معروفة «الترغيب والترهيب» وانطلقت أولى الخطوات بتعينه قاضياً لأحد الألوية، وكان الهدف إبعاده عن الاستانة، لكنه رفض، فتم توقيفه ووضعه تحت المراقبة، وبعدها تم تعيينه الزامياً «مأمور اقامة» في دمشق وبراتب قدره خمسمائة غرش، وهكذا تم الزامه - تحت المراقبة - الاقامة بدمشق لعام ونصف العام وجاءت النتيجة عكس ماأراد العثمانيون، ففي هذه الفترة، تقوت وتوثقت علاقات الزهراوي مع رموز حركة الاصلاح والتنوير في دمشق، وكان فيها حلقة الشيخ طاهر الجزائري وفيها مجموعة من رواد النهضة القومية أمثال: فارس الخوري، ورفيق العظم، شكرى العسلي، عبد الرحمن الشهبندر وسليم الجزائري وغيرهم.

النقلة الخطرة:

وإذا كانت معارف الزهراوي وعلاقاته السابقة لاستقراره في دمشق الشام ذات أهمية في تكوين شخصيته وثقافته وتنمية معارفه، فإن إقامته في دمشق، والصلات التي عقدها فيها مع النخبة الشامية، إضافة الى نضوج التجربة، أدت الى انفتاح الابواب واسعة أمام الشخصية التنويرية للرحل وانطلاق امكانياته، والأبرز في كتاباته ظهرت في تلك الفترة، وكان بينها مقالة «رسالة في الإمامة» والتي شملت الشروط التي قال بها الفقهاء والمتكلمون في موضوع الإمامة والخليفة المسلم، وكانت سبباً في اعتقاله من جانب السلطات العثمانية، وقد نشرت المقالة - أو جزء منها - في جريدة «المقطم» القاهرية.

وكتب الزهراوي إبان اقامته الالزامية بدمشق رسائل في «الفقه والتصوف» نشرت في القاهرة عام ١٩٠١ وهي عبارة عن حوار في رسائل، انتقد بها التصوف، ودقق في معنى الفقه الاسلامي من حيث هو «عبادات» و«معاملات»، ونال القسم الأول من الفقه اهتماماً واسعاً من العلماء ورجال الدين، واستمروا في ذلك تالياً، أما في القسم الثاني، وبالرغم من تناولهم كثير من القضايا والأمور المهمة والأساسية، فإنهم قصروا في متابعة وتطوير هذا الجانب من الفقه الاسلامي، وهو موضوع على غاية من الأهمية.

وطالب الزهراوي في رسائله في «الفقه والتصوف» بإصلاح القضاء والمحاكم والقيام بعملية تحديث «المعاملات» بما تعنيه من اهتمام بحياة الناس وممارسة الاصلاح الذي «لايتم إلا بنبذ التقليد وممارسة الاجتهاد».

وقد أضاف الزهراوي في السنوات التالية الى ما سبق كتابات لاتقل أهمية لكن هذه الكتابات، والمعني بها رسالته في الإمامة، ورسائل الفقه والتصوف كانت الأخطر في حياته، إذ جاءت في فترة شبابه الأولى، وكادت تؤدي بحياته إذ استثارت ليس السلطات فحسب وإنما التقليديين من رجال الدين والبنى المحافظة من المجتمع الشامي الذين حركوا «العامة» ضد الرجل وكتاباته، وكادت الفتنة، تذهب بالزهراوي، لكنه نجا منها، ليقع في حبائل السلطة فتم اعتقاله، وارساله مخفوراً الى عاصمة الدولة فاحتفظ به هناك ستة أشهر أعادوه بعدها مخفوراً الى حمص للاقامة الجبرية تحت ذات الشروط التي كان يقيم بها في دمشق، من حيث العمل «مأمور اقامة» والراتب الشهري وهو ٥٠٠ غرش.

الاتجاه نحو المنفى:

فترة الاقامة الجبرية في مدينة حمص بين أهله وأصدقائه، لم تلجم النوازع نحو الحرية في نفس عبد الحميد الزهراوي وإنما زادته ولعاً بالحرية ومحبة لها، واستعداد للتضحية من أجلها، فاغتنم فرصة في عام ١٩٠٢ ليتسلل هارباً الى مصر عبر طرابلس الشام، وفي القاهرة التي كانت قبلة أحرار بلاد الشام الهاربين من العسف والاضطهاد الحميدي عاش الزهراوي، وعمل في الصحافة، متنقلاً ما بين جريدتي «المؤيد» و «الجريدة» والأخيرة كانت تنطق بلسان حزب الأمة المصرية، واستمر به المقام هناك حتى قيام ثورة جمعية الاتحاد والترقي العثمانية وإعلان الدستور عام ١٩٠٧.

عاد الزهراوي الى حمص بعد الثورة الاتحادية، وتم انتخابه عضواً

في مجلس النواب فسافر الى الاستانة، والى جانب عضويته في مجلس النواب «المبعوثان» قام الزهراوي بإصدار صحيفة «الحضارة» عام ١٩١٠ «جريدة عربية يومية سياسية فنية أدبية» وتضمنت افتتاحية عددها الأول الدعوة الى «إقامة ميزان العدل في هذه الحكومة..» ومقاومة «مانراه حيفاً أو نصراً للحيف بقدر ما تساعدنا عليه القوانين».

وإنسجاماً مع تلك الروح التي تميز الزهراوي، فقد أخذت تشيد معارضته لحكومة «الاتحاد والترقي» وبخاصة السياسة الشوفينية التي طبقها الأتراك ضد بقية الجماعات المؤتلفة في إطار الدولة العثمانية، فانضم الزهراوي الى نواة من المعارضين الذين أسسوا حزباً بإسم «الحزب الحر المعتدل» والذي مالبث أن اندمج في حزب آخر هو «حزب الائتلاف» وشكلا «حزب الحرية والائتلاف» كان الزهراوي من كبار مؤسسيه لمواجهة حزب الحكومة «حزب الاتحاد والترقي» وسياساته.

لقد تابع الزهراوي سياسته المعارضة للحكومة الاتحادية طوال الدورة الاولى لمجلس النواب العثماني «المبعوثان» ما بين كانون الاول (ديسمبر) ١٩٠٨ وكانون الثاني (يناير) ١٩١٢، وعندما جرت الانتخابات النيابية للدورة الثانية عام ١٩١٢ بتدخل السلطان الفاضح الى درجة كادت تكون تعينا، لم يدخل تعينياً الزهراوي المجلس وحافظ على خطه في المعارضة، واستمر في اصدار صحيفة «الحضارة» حتى مغادرته الاستانة الى حمص أواخر عام ١٩١٢ حيث توقفت «الحضارة».

الانتقال الى طور جديد:

لم يطل مقام الزهراوي في حمص، وغادرها الى مصر، وهناك بدأت رحلة جديدة في حياته، رحلة كانت خاتمتها سريعة غير أنها ذات أهمية كبرى، وأولى خطوات تلك الرحلة ذهاب الزهراوي الى باريس لحضور المؤتمر العربي الأول (١٨ - ٢٣ حزيران (يونيو) ١٩١٣) والذي دعت اليه جماعة من القوميين العرب معظمهم من «جمعية الفتاة العربية» وانتخب المؤتمر الزهراوي رئيساً له، وفي كلمته أمام المؤتمر أبرز الزهراوي الملامح الأساسية للفكرة العربية القائمة على أساس رفض العبودية وتطوير الحياة السياسية وتوسيع أطر المشاركة الشعبية في الحياة السياسية والرقابة على السلطة وإقامة علاقات توازن وتفاعل بين الشرق والغرب.

إن محتوى كلمة الزهراوي أمام المؤتمر وعنوانها «تربيتنا السياسية» يكشف بعمق عن تلك الملامح، وهو يتناول المباحث الأساسية لموضوعات مؤتمر باريس من حيث هي «الحياة الوطنية ومناهضة الاحتلال، حقوق العرب في - الدولة - العثمانية، ضرورة الاصلاح على قاعدة اللا مركزية، المهاجرة من سورية والى سورية».

اتخذ مؤتمر باريس قراراً يمنع الأعضاء قبول مناصب في الدولة العثمانية، لكن الروح المتحفزة للاصلاح عند عبد الحميد الزهراوي، والوعود التي أطلقها الاتحاديون في خلال محادثات جرت في باريس عقب المؤتمر مع مجموعة من أعضاء المؤتمر جعلت الزهراوي يقبل وأربعة آخرين من رجالات العرب عضوية مجلس الاعيان «في الاستانة»،

وهكذا سافر الى هناك في كانون الاول (يناير) ١٩١٤ على أمل حدوث متغيرات جوهرية في سياسة الاتحاديين إزاء العرب، غير أن الاتحاديين كانوا في اتجاه آخر، لم يلبث أن فضح نفسه، عندما ساق مجموعة من قادة الحركة العربية وعلى رأسها الشيخ عبد الحميد الزهراوي الى أعواد المشانق في ٦ ايار (مايو) ١٩١٦ بحجة «خيانة الدولة» و «التعامل مع أعدائها»، وكان لتلك الجريمة أثر حاسم في موقف العرب من سلطة الاتراك الاتحاديين وممارساتهم في الولايات العربية، مما جعل الثورة العربية المسلحة تنفجر في العاشر من حزيران (يونيو) عام ١٩١٦ بقيادة الشريف حسين بن علي.

لقد كتب رشيد رضا أحد رحالات عصر التنوير والنهضة العربية - الاسلامية عن الزهراوي بعد استشهاده يقول «كان هذا الشهيد السعيد نابغة من نوابغ السوريين، ما عرفت بلاده كنهه، ولاقدرت قدره على أنها لم تقصر في تكريمه وتعظيمه... إنه أحد إشراف البلاد المنصرفين لخدمة الأمة بكفاءة واستعداد..» ومن مزاياه «معرفة المصلحة، وفصاحة اللسان، وقوة الحجة، وجرأة الجنان»، ومن فضائله «استقلال الرأي، وصدق القول، وقوة الارادة والاخلاص في العمل، وإيثار الحق على الهوى، وتوجيه الهم والهمة الى المصالح العامة» إنه «من الحكماء الربانيين والفلاسفة الاجتماعيين»...

عز الدين القسام: الداعية والقائد

عندما جرت معركة يعبد أواخر عام ١٩٣٥ لـم يكـن أحـد يسـتطيع الجزم بأن تلك المعركة بما فيها من دلالات ستكون شرارة انطلاق ثـورة فلسطين الكبرى ١٩٣٦ وأن الناجين من تلك المعركـة وشـهداءها علـى السواء سيكونون قادة الثورة المقبلـة بـل هـم محورهـا وموجـه نشـاطاتها كحركة شعبية مسلحة عمت مختلف أنحاء فلسـطين، وشـدت اليهـا مـن المحيط العربي عشرات ومئات من خـيرة الرجـال خـبرة ومعرفـة وإقدامـاً ليشاركوا فيها. رجال كـان بينهـم العـاص والقـاوقجي والاشـمر وغـيرهم كثير ممن هالهم ما يحدث في فلسطين فقرروا الانخراط في ثورتهـا ضـد الانتداب الصهيوني حيث كا نت المساعي المشتركة تعمل بقـوة وسـرعة من أجل إقامة «وطن قومي لليهود في فلسطين» طبقاً لما نص عليـه وعـد بلفور.

ومعركة يعبد التي استشهد فيها الشيخ عز الدين القسام وعدد من رفاقه في معركة غير متكافئة مع قوات الانتداب البريطاني، لم تكن معركة عاديـة مـن تلـك المعارك التي كانت تشهدها فلسطين بـل كـانت فـي محتواهـا وبعدهـا التـاريخي تمثل تحولاً في الصراع الجاري في فلسـطين جوهـره انتقـال الصـراع مـن طابعـه

السياسي الجزئي وحتى الشامل الى الطابع المزدوج من حيث هو صراع عنيف ومسلح وشامل في آن معا ولهذا كانت المعركة مهمة للغاية.

وأهمية المعركة لاتنفصل بدورها عن أهمية بطل تلك المعركة وشهيدها الرئيسي عز الدين القسام وتجربته إذ هي آخر محطة في تجربته المعاشة لكنها ليست الأخيرة في التجربة القسامية الجهادية التي تابعها «القساميون» بعد استشهاد قائدهم في أحراش يعبد بل يمكن القول أن للقسام ورفاقه من بعد الفضل في ولادة واستمرار الظاهرة الجهادية في حركة النضال العربي ضد الصهيونية.

بدايات الداعية والقائد:

لا يمكن الفصل بين أهمية الظاهرة الجهادية التي مثلها القسام ورفاقه وامتدت بعدهم عن حياة الرجل وتجربته التاريخية في استنهاض الحركة الشعبية المسلحة ودفعها على خط مناهضة المشاريع الاستعمارية والوقوف ضدها وقد امتدت حياة القسام وتجربته في ثلاث بقع جغرافية هي سوريا ومصر وفلسطين. تجربة إذا أردنا اختصارها أمكن القول أن القسام ولد في سوريا وتلقى ثقافة أزهرية في مصر وعاش الفترة الأهم من تجربته في فلسطين.

غير أن اللوحة المختصرة تحتاج الى تفاصيل لتبين على نحو جلي الأهم في ملامح الرجل وتجربته كداعية وقائد وصاحب مدرسة متفردة في الحياة السياسية التي عاشتها النخبة العربية في النصف الأول من القرن العشرين.

ولد عز الدين القسام أوائل ثمانينات القرن التاسع عشر في بلدة جبلة

السورية الساحلية لأبوين من عائلة متوسطة موصوفة بمظاهر التدين والورع، وبعد أن تلقى الابن تعليمه الأولي أوفده والده برفقة أخيه لدراسة الشريعة في جامع الأزهر الحاضرة العلمية والثقافية في مصر، وهناك تتلمذ الفتى على أيدي مجموعة من شيوخ «عصر النهضة» من بينهم الشيخ محمد عبده ومحمد رشيد رضا وآخرين، كانوا يحاولون التوافق بين المخاض الذي تعيشه المنطقة والاحتياجات الحقيقية لشعوبها الفاعلة للمنطقة في بناء الحضارة الانسانية.

ملامح الحياة السورية:

وعندما عاد الشيخ الشاب الى بلدته «جبلة» أخذ يكرس عبر الممارسة العملية جملة الأفكار والمعطيات والخلاصات التي حصل عليها من مكونات تربيته وبيئته الاجتماعية ودراسته الأزهرية وأخذت تبرز شيئاً فشيئاً صفات الداعية والقائد اللتان صار اليهما القسام في حياته اللاحقة.

إن حياة المعلم التي بدأها القسام في كتّاب أبيه بعد العودة من الأزهر، أهلته لمقاربة الحياة العامة في البيئة الشعبية وفي معرفة احتياجاتها الاجتماعية في أبعادها السياسية والاقتصادية والآفاق المستقبلية المفتوحة بهذا الاتجاه، وكان من الطبيعي أن يصل الرجل الى ذلك بصفته معلماً لم يقتصر في مهمته على التعليم الديني - وكان سائداً في زمنه - بل زاد عليه دروساً في العلوم الحديثة التي تلقى منها في الأزهر.

وانتقل القسام لاحقاً ليصير إماماً لجامع المنصورى في «جبلة» وخلال تلك االسنوات (ما بين ١٩٠٣ - ١٩١٩) عقد القسام روابط وصلات وثيقة مع اطار اجتماعي يشمل «جبلة» ومحيطها، حيث امتدت

شهرة الشيخ الشاب وسمعته الحسنة وأفكاره، وعقد كثيراً من الصداقات التي ستكون ذات تأثير في حياته المقبلة.

إن بدايات الداعية لم تكن كامنة في جملة المعارف الثقافية والفقهية التي اكتسبها القسام من دراسته في الأزهر - فكثيرون كان لديهم ما لديه في هذا المجال - بل اضافة الى تلك المزية كانت الأجواء التي عاصرها وفيها النفر الذين عاصروا حركة أحمد عرابي التحررية - الاستقلالية المناهضة للاحتلال الانكليزي في مصر، والى ذلك جملة الظروف المحلية التي كانت تلح على تقديم رجال ليأخذوا موقع الدعاة والقادة في حركة شعبية تستعد للنهوض. وقد توافق ذلك كله مع الامكانيات الشخصية المميزة للشيخ الشاب في قدراته العقلية والمعرفية والخطابية لتجعل منه داعية وقائداً.

تجلت بدايات الداعية والقائد في مرحلة مبكرة من حياة القسام في استنفاره الحركة الشعبية لدعم المقاومة العربية للغزو الايطالي الليبية عام ١٩١١، عندما قاد تظاهرة محلية وجمع تبرعات ونظم قوائم لأكثر من مئتي متطوع باحتياجاتهم للذهاب الى ليبيا والقتال فيها ضد الغزو الأجنبي، لكن السلطات العثمانية منعت اكمال المبادرة القسامية في ذهابها الى نهاية الشوط.

ولم يلجم «فشل» المبادرة الأولى همّة وطموح الشيخ الشاب ومساعيه نحو أهدافه التحريرية النهضوية بل كانت حافزاً له في رفع راية المقارمة للاحتلال الفرنسي للساحل السوري بعيد الانسحاب العثماني، وفي ذلك نظم وقاد وشارك في حمل السلاح ضد الفرنسيين سنوات

(١٩١٩ - ١٩٢٠) ولاسيما في ثورة جبال صهيون الى جانب عمر البيطار وآخرين وتعرض كغيره من رجال المقاومة العربية وقادة الثورة المسلحة لغضبة المحتلين المقنعين بـ«الانتداب» فأصدروا ضده حكماً بالإعدام، ورفض لاحقاً الدخول معهم في مساومة جوهرها التوافق مع الوجود الاستعماري في سورية واختار الهجرة الى ميدان آخر وما كان إعتباطاً أن اختار فلسطين مقراً وميداناً ووصل هناك أواخر صيف ١٩٢١، مفتتحاً في مدينة حيفا فصلاً جديداً من حياة الداعية والقائد، فصلاً امتد زمنياً أربعة عشر عاماً (١٩٢١ - ١٩٣٥) لكنه عملياً مازال ممتداً بإعتباره تجربة تتجدد من حياة صاغ القسام شعارها واختصره قائلاً «النصر أو الشهادة».

القسام في ملامحه الفلسطينية:

زاوحت حياة القسام الفلسطينية بين حياة المعلم في المدرسة الإسلامية في حيفا، وإمام جامع الاستقلال في المدينة وترافق مع ذلك وتبعه العمل مأذوناً شرعياً يجوب مناطق الريف في مناطق شمال فلسطين جبالاً وساحلاً وسهولاً وفي كل ما تقدم تعرف الرجل الى الأوضاع العامة التي كان يعيشها فلسطينيو العشرينات ومطلع الثلاثينات في منطقة من أكثر مناطق فلسطين احتداماً في صراعها مع مشروع الاستيطان اليهودي وبإضافة تلك النقطة الى ما كان يتحلى به الرجل من صفات ومزايا مجسدة في معارفه وإمكانياته وخبرات اكتسبها، تهيأت الفرصة لإنطلاق فصل أعمق وأبعد أثر من حياة الداعية والقائد.

كانت البدايات هادئة، لكنها قوية وفعالة ودؤوبة، تمثلت في اختيار

لشخصيات محورية نشطة منها تكونت النواة الصلبة للجماعة بقيادة الشيخ الرئيس مباشرة، وتم تقسيم العمل داخل النواة بهدف إيجاد المرتكزات المادية والمعنوية للنجاح، وبطبيعة الحال فإن تقسيم العمل كان يأخذ معطيات الواقع واحتياجاته بعين الاعتيار ولم تكن اعتباطاً أن تظهر حلقات داخلية تهتم بمجالات «الدعوة والتموين والامداد والتدريب والاعداد» و«الاستطلاع والاستخبارات» و«الاتصالات والعلاقات الخارجية»، وجميع تلك المهمات «الحلقية» كانت تمارس في إطار السرية الشديدة وتحت ستار نشاطات ثقافية - اجتماعية منها تعليم الأميين ومساعدة الفقراء، وهو جزء جوهري من نشاطات القسام وأنصاره، إضافة الى أن تلك المواجهة - الستار، كانت ضرورية لحماية عمل الجماعة من معرفة وخرق الانتداب البريطاني وتخريب المنظمات الصهيونية في فلسطين.

ولعدة سنوات كانت أعمال النواة الصلبة تتابع مجرياتها، وفي مساعيها لعمل جماعي منظم يبعد المتابعة البريطانية، ويختبر التدريبات والمهارات المكتسبة انكشف ستار عمل الجماعة وجرت المعركة الفاصلة في جبال يعبد حيث حطت التجربة رحالها الأولى باستشهاد الداعية والقائد الشيخ وبعض رفاقه لكن الباقين منهم تابعوا المسيرة مشاركين وقادة لثورة فلسطين الكبرى التي انطلقت شرارتها في ربيع عام ١٩٣٦ ثم تجدد طابعها المسلح العنيف والشامل في خريف عام ١٩٣٧ بمبادرة القساميين وقادتهم وبذلك كان الإثبات الأول والحاسم على استمرار عمل الداعية والقائد الذي بدأه الشيخ القسام واستمر بعد وفاته !.

فارس الخوري: رجل التعددية المعرفية

عندما أراد قسطنطين زريق المفكر العربي المعروف أن يكتب شيئاً عن فارس الخوري بعيد وفاة الرجل كتب يقول «وراء الحقوقي المتمكن، والزعيم الوطني، ورجل الدولة القدير، والعالم، والوجه الدولي، كان هناك فارس الخوري الانسان، ومن صفاته الانسانية المتعددة ميزتان، تركتا أعمق الأثر في نفسي أولهما بساطته وتواضعه، وهناك فضوله المتعطش أبداً الى الثقافة. كان يقرأ كل أنواع الكتب، ولم يكن هناك موضوع، لايثير اهتمامه، وحتى آخر أيامه بقي دماغه متنبها للمعرفة وتواقاً اليها».

الطريق نحو النبوغ:

ووراء تلك الشخصية الفذة، تكمن عوامل خصبة أثرت وأغنت حياة الرجل وتجربته في تعدديتها المعرفية والعملية التي اشتهر بها على مدى ستة عقود هي سنوات الخصب والعطاء في حياة الرجل وقد توفى في شتاء عام ١٩٦٢.

ولد فارس يعقوب الخوري سنة ١٨٧٧ في قرية الكفير اللبنانية على السفح الغربي لجبل الشيخ الذي يصل بين ثلاثة حدود سياسية هي اليوم لبنان وسوريا وفلسطين التي كانت جزءاً واحداً موحداً في كثير من تفاصيل ومجريات حياة فارس الخوري في طفولته وشبابه، في تجاربه

وأسرته وفي كفاحه أيضاً على نحو ما ستتبين في بعض تفاصيل حياته اللاحقة.

تلقى فارس الخوري تعليمه الأولي في الكفير، ثم انتقل الى صيدا ليتابع تعليمه في المدرسة الداخلية هناك سنة ١٨٩٠، وبعدها بسنوات تابع تعليمه العالي في الكلية الامريكية ببيروت ليحصل منها على الشهادة العلمية العالية المعادلة لشهادة البكالوريوس في العلوم والآدب والفنون وذلك في عام ١٨٩٨.

ومنذ حصوله على التعليم المتوسط، تم اختيار فارس الخوري للمساهمة في التعليم، فكلفه «المرسلون الامريكان» تعليم الاطفال في زحلة بالبقاع اللبناني، ثم أرسلوه في العام ٩٢-١٨٩٣ معلماً في مجدل شمس في منطقة الجولان السورية، ونقلوه في العام التالي معلماً في مدرسة صيدا جنوب لبنان، ثم معلماً في البترون وزحلة، وبعدها بسنوات صار أستاذاً في الكلية الامريكية ببيروت.

ويبدو أن لعمله في ميدان التعليم ولطبيعة تنقلاته وصلاته روابط بنمو اهتماماته المعرفية والعلمية، إذ أتاح له ذلك فرصة تنمية معارفه وتوسيعها، ولعل الأبرز في ميدان نجاحاته في هذا المجال كان في ميدان الحقوق، وهو من بين الميادين الأولى التي اشتهر بها فارس الخوري.

فقد مارس الرجل مهنة المحاماة على مدار عقود ولمع فيها، واليه يعود الفضل في تأسيس معهد الحقوق في دمشق مع بداية العقد الثاني من القرن العشرين، وصار أستاذاً في المعهد، وتولى منصب نقيب المحامين السوريين لأول مرة، ثم أخذ نجمه في هذا المجال يلمع خارج سوريا، فأصبح عضواً في لجنة الحقوق الدولية التابعة لهيئة الأمم المتحدة، وكان

بين القلة القليلة من الذين وضعوا ميثاق المنظمة الدولية عند تأسيسها في أعقاب الحرب العالمية الثانية، وبذلك برز الرجل علماً من أعلام القانون الدولي، وأضاف الرجل الى نجاحاته في ميدان الحقوق، تأليفه ثلاثاً من أمهات المؤلفات القانونية أبرزها «أصول المحاكمات الحقوقية».

وإضافة الى نبوغه في ميدان الحقوق، برز الخوري في تعليمه الى حد إجادة اللغات الحية في زمانه وهي التركية والفرنسية والألمانية إضافة الى لغته العربية التي أجادها كتابة وخطاباً وحديثاً يصله بالعالم من حوله عبر طرق شتى فكان خطيباً وشاعراً وصحافياً وأديباً ومؤرخاً ورجل فكر وسياسة.

السياسة بين الوطنية والقومية:

ويتصل نبوغ فارس الخوري في الميدان السياسي إضافة الى قدراته الشخصية بتجربة خاصة كانت قائمة في دمشق مع بدايات القرن العشرين، وهذه التجربة هي حلقة الشيخ طاهر الجزائري الشخصية التحررية المتنورة التي كان يلتف حولها أبرز رجالات النخبة العربية في دمشق، وتربى في أفيائها كثيرون منهم سليم الحزائري، ورفيق العظم وشكري العسلي، وعبد الرحمن الشهبندر وعبد الحميد الزهراوي ومحمد كرد علي وغيرهم ممن برزوا من رجالات فكر وسياسة بعضهم ذهبوا ضحايا السياسات التركية-العثمانية، وآخرين منهم استمروا في عملية التحديث الفكري والسياسي في المشرق العربي، كان بينهم فارس الخوري.

وكان بين المناصب السياسية الاولى التي تولاها الخوري انتخابه

عضواً في بلدية دمشق عام ١٩١٠، ثم اختياره بالانتخاب مندوباً عن دمشق في مجلس المبعوثان (النواب) العثماني عام ١٩١٤، وهناك تبلورت شخصيته السياسية، وازداد بريقها وتألقها في شخصية الخطيب البرلماني، والقانوني، وصاحب الرأي الجريء المطالب بحقوق العرب.

وانتقل الخوري في ميدان عمله السياسي الى الأعمق، عندما انضوى في إطار الحكومة العربية بدمشق التي أسسها واشتغل بها أحرار العرب في نضالاتهم من أجل التحرر من الرابطة العثمانية، والسعي نحو الاستقلال وبناء الدولة العربية عقب الثورة العربية الكبرى، وكان بين رجالات دولة الملك فيصل عندما جرى الاعلان عنها عام ١٩١٨ في دمشق، والتي جاء التدخل الفرنسي، ثم الانتداب لإنهائها، وتجميد خط التطور العام السياسي والاقتصادي - الاجتماعي في سورية، واخضاعها لنمط التطور الكولونيا لي الاستعماري.

وطوال سنوات الانتداب الفرنسي عمل فارس الخوري مع رجالات الحركة الوطنية والقومية في البلاد من أجل التحرر الوطني والتقدم على طريق الاستقلال وفي ذلك كثير من مواقفه المعروفة التي جعلت منه شخصية وطنية حازت على إجماع شعبي، يستحق أن يكون نموذجاً لرجل سياسة في بلد يخوض معركة من أجل الاستقلال والحرية.

البعد القومي في اهتماماته:

وفي معظم فترات حياته السياسية لم يعزل فارس الخوري اهتماماته السياسية في سوريا عن محيطها العربي، فأبدى اهتماماً ومتابعة للقضايا العربية، وفي المقدمة الغزوة الاستيطانية الصهيونية لفلسطين، حيث كان

في عداد الرعيل العربي الذي تصدى كاتباً ومفكراً وسياسياً للنشاط الصهيوني في فلسطين، وساهم في الحملات ولاسيما الدولية والقانونية من أجل التحرر والاستقلال التي خاضتها الأقطار العربية، وكان بين أبرز المشاركين العرب في ولادة جامعة الدول العربية أواسط الأربعينات، وأحد الذين وضعوا ميثاقها.

فايز صايغ
الدبلوماسية المميزة في رجل

لن يمر وقت طويل حتى يكتشف العالم حقيقة أي قرار أخرق هو ذاك الذي اتخذته الأمم المتحدة عام ١٩٩٣ والقاضي بالغاء قرارها رقم ٣٣٧٩ لعام ١٩٧٥ والقاضي بإدانة الصهيونية بإعتبارها شكلاً من أشكال العنصرية والتمييز العنصري. ذلك أنه لم ولن تحصل متغيرات جوهرية في الأيدلوجية الصهيونية التي بنت دولتها في فلسطين المحتلة على حساب العرب الفلسطينيين وهي تستمر في العامل معهم انطلاقاً من ذات الايدلوجيا رغم كل ما يقال في اتجاه الصهيونية ودولتها نحو «مصالحة تاريخية» مع العرب، وأنها بالتالي تتجه نحو التخلي عن عنصريتها!.

ويرتبط القرار الدولي ٣٣٧٩ لعام ١٩٧٥ بإسم أحد أبرز رجال الفكر والدبلوماسية العربية وهو الدكتور فايز صايغ المناضل والمفكر الذي عمل طويلاً على جهة الصراع العربي - الصهيوني قبل أن تضع حياته رحالها أواخر عام ١٩٨٠.

المولد والتكوين:

ولد فايز صايغ في قرية «خربة» في محافظة السويداء السورية عام

١٩٢٢، من عائلة اشتهر فيها أكثرية الأخوة: توفيق صايغ الشاعر المجدد، وأنيس المفكر والأكاديمي والمناضل، ويوسف صايغ المفكر الاقتصادي المعروف. وانتقل فايز صبياً مع العائلة الى فلسطين حيث صار والده قساً في مدينة طبرية ووالدته معلمة، وفي الكلية الاسكتلندية في صفد تلقى فايز الصبي تعليمه الأولي، قبل أن ينتقل بعدها الى الجامعة الامريكية في بيروت، ويحصل منها على «البكالوريوس» عام ١٩٤١ ثم «الماجستير» عام ١٩٤٥ وبعدها تم تعيينه أستاذاً للفلسفة في الجامعة الامريكية بين عامي ١٩٤٥ - ١٩٤٧ وتهيأت له الفرصة لإتمام تعليمه العالي فسافر الى الولايات المتحدة للدراسة، ومن جامعة جورج تاون حصل فايز صايغ على شهادة «الدكتوراه» في عام ١٩٤٩.

تابع فايز صايغ تكوينه في المستوى العلمي والأكاديمي من خلال تنمية قدراته العلمية والمعرفية، وفي هذا كان انشغاله في مؤسسات البحث العلمي والأكاديمي، ولعل الأبرز في ذلك شغله منصب أستاذ زائر في جامعة ستانفورد الامريكية (١٩٦٠ - ١٩٦٢) وفي جامعة أوكسفورد البريطانية بين عامي (١٩٦٢ - ١٩٦٤) وفي الجامعة الامريكية بيروت (١٩٦٤ - ١٩٦٧). والى هذا الخط ينتمي عمل فايز صايغ في عدة وظائف منها في مجال الاعلام والشؤون العامة لدى هيئة الامم المتحدة بين عامي (١٩٥٠ - ١٩٥٩) بل يمكن الذهاب أبعد في هذا الى حد القول أن اشتغاله في رئاسة وتأسيس مركز الأبحاث الفلسطيني عمل ينتمي الى مرحلة التكوين رغم أن الدكتور فايز صايغ كان قد أصبح علماً معروفاً وشخصاً مهماً في حينه، إضافة الى أنه كان

يحتل منصب عضو في اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية وهي منصب رفيع من الناحية السياسية والاجتماعية.

الرجل الدبلوماسي المميز:

إن الأهم في شخصية الدكتور فايز صايغ هو نتاج ذلك التكوين العميق المتعدد المنابع والخطوط، وثمرة تلك العلاقات بكل تفاعلاتها مع التربية القومية التي تلقاها، وبخاصة عندما كان في شبابه عضواً بارزاً في الحزب السوري القومي (١٩٤٣ - ١٩٤٧) وقد كان أهم أبرز دعاة ومفكري الحزب وفي طبيعة الحياة التي عاشها مع ذكريات الطفولة في المولد السوري الى ذكريات اليفاع في الوطن الفلسطيني الى مرحلة الشباب في لبنان ثم الى حياة الاغتراب في المهجر الامريكي وفيها حالات التردد الطويل زمنياً الى المشرق ثم عودة الى المهجر الامريكي مرات ومرات.

لقد أثمر ذلك التكوين المعرفي والعلمي في شخصية فذة ومميزة، هي شخصية الحوار والجدل، بل هي شخصية الاقناع لاستخدام الحقائق وتقديمها في سياقات مقبولة بل ومطلوبة أيضاً، وربما كانت هذه الميزة الأهم في شخصية فايز صايغ التي بدأت تنمو وتتوسع في هذا الاتجاه عندما اشتغل مستشاراً للبعثة اليمنية في الأمم المتحدة بين عامي (١٩٥٥ - ١٩٥٩) ولكنها لم تتفتح بالصورة المطلوبة إلا مع سنوات السبعينيات عندما كانت تجربته قد اكتملت، وصار لها طابعاً شاملاً ومركزاً، في هذه الفترة (١٩٧٢ - ١٩٨٠) شغل الدكتور صايغ مهمة مراقباً دائماً لجامعة الدول العربية في الأمم المتحدة ومستشاراً للبعثة الكويتية في المنظمة الدولية.

ابداعات ذات معنى:

إن ثمار عمل الدكتور فايز الفكرية ملحوظة في عدد كبير من المؤلفات صدرت باللغتين العربية والانكليزية وكتبها بين عامي (١٩٤٢ - ١٩٦٧)، وهي تتناول موضوعات متعددة، وتمت ترجمة العديد منها الى لغات أدبية عدة، والى ذلك يضاف مجموعة من الدراسات والمقالات المنشورة بالعربية والانكليزية على مدى نحو أربعة عقود تناولت القضايا العربية والفلسطينية بصفة خاصة.

لكن هذه الثمار في أهميتها ونضجها لاتعادل الدور الاعلامي البارز الذي قام به الدكتور صايغ من خلال مئات الندوات وآلاف المحاضرات والنقاشات الحارة والمباشرة والعلنية المتصلة بالشأن العربي ومعطيات الصراع العربي الصهيوني، والتي من خلالها تعرفت قطاعات غربية واسعة على القضايا العربية في نقاش حي مع خصومها وأعدائها من الصهيونيين وأنصارهم، ندوات ومحاضرات ونقاشات عمادها «الهدوء والرزانة في النقاش، ودعم الحجة بالإثباتات العلمية وسرعة الخاطر وقوة الذاكرة». وجميعها أشياء ذات أثر في تقدم المواقف والآراء والأفكار للآخرين أياً كانت مواقعهم.

إن تلك المزايا جعلت من دبلوماسية الدكتور صايغ دبلوماسية ذات تاثير وفعالية عالية المستوى، بحيث اخترقت تلك الدبلوماسية كل الدوائر القائمة في المنظمة الدولية وصاغت الى الجمعية العامة للأمم المتحدة بالروح والنص مشروع قرار «يدين العنصرية والتميز العنصري» بالرغم من نفوذ اسرائيل وحلفائها ولاسيما الولايات المتحدة، فقد نجحت

الجهود في تمرير المشروع وجعله قراراً في المنظمة الدولية، وكان ذلـك حدثاً بارزاً، وربما هو الحدث الأهـم فـي الأحـداث التـي شـهدتها الأمـم المتحدة طوال عقد السبعينيات.

ومما لاشك فيه أن جهود الولايات المتحـدة و«العـدو الاسـرائيلي» المضنية لإلغاء ذلك القرار منـذ اتخـاذه عـام ١٩٧٥ وحتـى العـام ١٩٩٣ تثبـت بـالدليل الحـي والقـاطع أهميـة ذلـك القـرار وأهميـة الشـخصية الدبلوماسية التي كانت للرجل الذي صاغه وطوع كلماته وجعل المجتمع الدولـي مـن خـلال الجمعيـة العامـة يقـف ليقـول كلمتـه الواضحـة فـي الصهيونية وبالتالي في «كياتها الاسرائيلي» ولايقلل من الأمر أنه تـم إلغـاء القرار فليس بعيداً أن يصحو العالم على من يعيـد الـى ابـداع الراحـل فـايز صايغ الحياة على ذات المنبر طالما بقيت الصهيونيـة والتـي هـي العنصريـة بعينها.

فوزي القاوقجي:
قائد لكل جبهات الحرب

يكاد يتفرد فوزي القاوقجي من بين رجال النخبة العربية بسيرة عسكرية ميزت حضوره اليومي والمباشر في معظم أنحاء المشرق العربي على امتداد أقطاره من مصر غرباً الى العراق شرقاً ومن سوريا الى جزيرة العرب، مروراً بالقلب الفلسطيني والذي كان له الحصة الكبرى في حضور القاوقجي العسكري على مدى عقدين من السنوات، حيث شهدت فلسطين أهم أحداث النصف الأول من القرن في صراعها ضد الانتداب البريطاني في ثورتها الكبرى وضد المشروع الاستعماري الصهيوني في حرب عام ١٩٤٨.

المولد والتأسيس:

ولد فوزي القاوقجي في مدينة طرابلس الشام في العام ١٨٩٠، وتلقى تعليمه الأولي في الاستانة، وبعدها انتسب الى المدرسة الحربية، حيث تخرج ضابطاً في سلاح الخيالة في عام ١٩١٢، وبعدها أرسله العثمانيون الى الموصل، وهناك أخذ يتعمق احساسه بعروبته متفاعلاً مع نمو خبرته العسكرية وبروزه مدرباً في سلاح الخيالة.

كانت أولى مساهماته في الشأن العربي اشتراكه في الحرب ضد

القوات الانكليزية التي حاولت احتلال البصرة عام ١٩١٤، وبعد أن جرح هناك، غادر حيث الحقه العثمانيون بفرقة الخيالة المرابطة في خط غـزة - بئر السبع بمواجهة القوات البريطانية في مصر طوال فترة الحرب الأولى.

استمر القاوقجي يقاتل في صفوف الأتراك العثمـانيين طـوال سنوات الحرب ١٩١٤ - ١٩١٨ رغم عدائه للأتراك وسياساتهم ومضايقاتهم له، ورغم اتصاله برجالات الحركة العربية الذيـن علقهـم الاتـراك علـى اعـواد المشانق - والسبب في موقف القاوقجي هو تخوف الرجل، وفقدانه الثقة بالحلفاء من الفرنسيين والانكليز، وهذا ما أثبتته الوقائع لاحقاً وجعلت منه جندياً وقائداً يخوض الحرب في أكثر من موقع ضـد الوجوديـن الفرنسـي والانكليزي في المشرق العربي على مدى عقود متوالية.

دعاه الملك فيصل بن الحسين عندما زار طرابلس الشام أواخـر عـام ١٩١٨ للعمل في خدمة الدولة العربية، فـالتحق بهـا فـي ديـوان الشـورى الحربي، وهناك تزامل مع عدد مهم من رجالات النخبة العسـكرية العربيـة بينهم سعيد العاص وطه الهاشمي وغيرهم، وبعد هزيمة ميسـلون وسـقوط الدولة العربية في دمشـق عـام ١٩٢٠، اختـاره الفرنسيون ليكـون معاونـاً للمستشار الفرنسي في مدينة حماة، وفي تلك المدينة أخذ القاوقجي يتهيأ لحركة ثورية مسلحة، ما لبثت ظرفها الموضعي أن تهيأ مع انطلاقة الثـورة السورية الكبرى ١٩٢٥ - ١٩٢٧.

من ثورة سوريا الى ثورة فلسطين:

انتفض القاوقجي في حماة عام ١٩٢٥ محاولاً قيادة ثورتها في اطار الثورة السورية الكبرى، وعندما فشلت انتفاضته لأسباب فنيـة، التحـق مـع

كثير من رجالات حماة بمركز الثورة في دمشق وجبل العرب، وعلى مدى أعوام ساهم القاوقجي في الثورة وفي قيادة بعض مواقعها ومعاركها، وحقق الى جانب رفاقه في الثورة انتصارات عسكرية وسياسية عامة على القوات الفرنسية، لكن الخلافات التي عصفت بالثورة طمست معالم تلك الانتصارات وجعلت الثورة تحط رحالها منهكة، فغادر القاوقجي الى المنفى على نحو ما صار اليه زعماء ورجال الثورة السورية.

أمضى القاوقجي سنوات في الجزيرة العربية متنقلاً بين مهمات مختلفة اصطدمت على الدوام بالنفوذ البريطاني الواسع الذي كان قائماً هناك، وغادر الى مصر ثم العراق والتحق مدرباً في الكلية الحربية ببغداد، وكان يأمل التعامل مع فيصل بن الحسين في تجديد نيران الثورة السورية ضد الفرنسيين في سوريا، إلاّ أن وفاة الفيصل حالت دون ذلك، لكن القاوقجي ظل يتابع تطورات الوضع في سوريا وفلسطين آملاً تحقيق حلمه في اشعال أو اشتعال الثورة هناك...

جاءت الفرصة للقاوقجي مع الاضراب الفلسطيني العام ربيع عام ١٩٣٦. ودعاه زعماء فلسطين الى تشكيل قوة من المتطوعين العرب من الاردنيين والسوريين واللبنانيين إضافة الى العراقيين. وتم تسليحهم وصار القاوقجي قائداً عاماً للثورة في فلسطين، وخاضت القوات المتطوعة الى جانب الفلسطينيين العديد من المعارك قبل أن تتوقف الثورة بقرار سياسي عربي - فلسطيني اعتماداً على حسن نوايا بريطانيا. وقد غادر القاوقجي الى العراق، وهناك تعرض لمضايقات شديدة وصلت درجة النفي بفعل الضغط البريطاني على حكومة بكر صدقي، وهذا ما جعله يقف بحزم الى

جانب ثـورة رشيد الكيلانـي عنـد انطلاقتها عـام ١٩٤١ وقـاد فـي هـذا الاتجاه مجموعة من المتطوعين العرب الذين وصلـوا العـراق للدفـاع عـن ثورته، وجرح القاوقجي أثناء صد الهجوم البريطاني على تدمـر وتـم نقلـه الى برلين حيث عولج من آثار إصابته الخطرة، وقد أقام هناك بقية سنوات الحرب العالمية الثانية، عاد بعدها الى المشرق العربي ليتابع مجدداً نضالـه المسلح ضـد المشـاريع الاسـتعمارية وخصوصـاً مشـروع الاسـتعمار الاستيطاني الصهيوني في فلسطين.

تجربة جيش الانقاذ:

عمل القاوقجي من خلال علاقاته واتصالاته بالقـادة العـرب وجامعـة الدول العربية وبالقيادات الفلسطينية، على إيجاد قوة عسـكرية مـن شـأنها منع تنفيذ المشروع الصهيوني بالقوة، وعليه تم تـأليف جيـش الانقـاذ مـن المتطوعين العرب، وتولـى القـاوقجي قيادتـه أواخـر عـام ١٩٤٧، وكـان الفوج الأول منهم بقيادة المقدم السوري أديب الشيشكلي، والثاني بقيـادة مواطنه المقدم محمد صفـا اللذيـن دخـلا مـع قواتهمـا الفلسـطينية وقـاتل القاوقجي داخل الأراضي الفلسطينية مع المتطوعين، وانتقل لاحقـاً للقتـال مع جنوده الى جانب الجيش السوري واللبناني على جبهـة جنـوب لبنـان، وحققت قوات جيش الانقاذ بقيادتـه كثيراً مـن الانجـازات رغـم النقـص والشح الشديد في العتاد والسلاح والذخيرة وتدخلات القيـادات العربيـة، مما كان له أثر سيء على الموقع العام الذي شغله جيـش الانقـاذ وزعيمـه فوزي القاوقجي في إطار الصراع العربي - الصهيوني في فلسـطين خـلال حرب ١٩٤٨ وخصوصاً بعد الهدنة الثانية التي توجـت هزيمـة عربيـة فـي

فلسطين كانت محصلة لاختلال موازين القوى وتفاوت الادارة السياسية والجهود العملية لكسب الحرب بين العرب والصهاينة. وهكذا انتهت تجربة جيش الانقاذ وسط احساس القاوقجي بالاحباط والهزيمة إحساس سيطر على ما تبقى من زمن في حياة فوزي القاوقجي الذي عاش ما بين عامي ١٨٩٠ - ١٩٧٧ عام وفاته في بيروت.

انشغل القاوقجي مثل كثير من أبناء جيله بقضايا أمته ولاسيما في المشرق العربي وكان بين القضايا تلك، قضايا سياسة وأخرى عسكرية، وإن طغى الجانب العسكري في اهتماماته وفي حياته العملية فإن من بين القضايا السياسية التي اشتعل بها كانت قضية الاسكندون، فقد كافح القاوقجي لأجل منع الحاق اللواء بتركيا، وفي ذلك ما يؤكد حرص الرجل وكفاحه بكل السبل من أجل حقوق أمته ووطنه، وهي أمور تؤكدها ليس سيرته ومذكراته فحسب، وانما سير ومذكرات الذين عرفوه وعايشوه من رجالات النخبة العربية وتتأكد تلك المعاني في جملة من الشهادات والوثائق التي تركها القاوقجي وقد جمعها على مدار ستة عقود ونيف من حياة قضاها مكافحاً ومجاهداً من أجل انتصار أمته وقضاياها على كل جبهات الحرب.

محسن الامين:
المفكر والمصلح والمربي

حين يتداول المهتمون موضـوع الاصـلاح الديني والاجتماعي في المشرق العربي في خلال «عصر النهضة» مابين أواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، لايمكن إلا أن يتقدم بين الرواد الأوائل اسم السيد محسن الأمين، وقد كان بين الذين زاوجوا وربطوا بين حركة الاصلاح في الشقين الديني والاجتماعي، وترك في هذا المجال أثراً يتجاوز في بعده الجغرافي المشرق العربي، حيث امتد الى العراق وإيران وأعماق أبعد في البلاد العربية والاسلامية.

خصوصيات المولد والنشأة:

ولد محسن الامين الحسيني العاملي في بيت علم ديني في قرية شقرا من قرى مرجعيون في جنوب لبنان عام ١٨٦٧، وتلقى تعليمه الأساسي خارج المؤسسة التعليمية المألوفة والسائدة في زمنه وهي «كتّاب القرية» الذي لم تطقْهُ نفسه ولم يقدر على احتماله، مما جعل أهله يتولون تعليمه الأولي بأنفسهم فنال على أيديهم العلوم الأساسية في اللغة والخط والفقه

والقرآن والحساب، قبل انتقاله الى تعلم ماهو أعقد وأكثر تنوعاً وعمقاً، فتوجه لتعلم السباحة والصيد وركوب الخيل انسجاماً مع النمط العام لحياة الأسرة ومفاهيم زمانها، وانتقل بعدها الى توسيع أطر معرفته وعلمه في النحو والصرف والفقه على أيدي رجال وشيوخ تم اختيارهم من محيط العائلة.

بدأت حياة الترحال عند محسن الأمين في فترة شبابه الاولى، بأن تنقل مابين النجف وكربلاء، وهناك تلقى علماً معمقاً في العلوم الدينية والفقهية، إضافة الى تعمقه بعلوم اللغة والفلسفات، وتتلمذ في ذلك على أيد كبار رجال الدين وعلماء الشيعة في «المقامات المقدسة» التي كانت تجمع عرباً وأتراكاً وإيرانيين وغيرهم من المسلمين الأمر الذي عكس ـ الى جانب غيره ـ نفسه في بناء الذهنية الفكرية عند محسن الأمين.

ووسعت حركة ترحال الرجل التالية، والتي شملت بقاع كثيرة امتدت مابين بلاد فارس وجزيرة العرب وفلسطين ومصر، ولقاءاته مع نخب وشخصيات، واطلاعه على أفكار وعادات وتقاليد، ومعايشته الواسعة لأنماط وسلوكيات ونماذج حياتية فردية واجتماعية، الحدود الذهنية والمعرفية لدى السيد الأمين.

سيرة الاصلاح والتجديد:

عندما حطت رحال السيد محسن الأمين في دمشق ١٩٠٢، فضل الإقامة الدائمة فيها، واختار التدريس والوعظ مهنة له، لما في ذلك العمل من أهمية معرفية ـ ثقافية ـ تربوية، يمكن أن تكرس نهجاً وطريقة في الاصلاح والتجديد الديني والاجتماعي، ومن وسط تلك المهنة، أخذ

اهتمامه بالشأن العام ينمو ويتصاعد، فأسس مع عدد من المربين والشخصيات الاجتماعية مدرستين صار لهما أثر بيّن وهام في دمشق لاحقاً، وهما المدرسة المحسنية المخصصة للذكور، والمدرسة اليوسفية للاناث.

ووسط حياته وصلاته في دمشق أخذ تتوضح وتتسع الملامح المعرفية الموسوعية لشخصية السيد الأمين وفي ذلك برزت شخصيته كشاعر، وفقيه مجتهد، ومتبحر في علوم اللغة وآدابها مما أهله ليكون عضواً في المجمع العلمي العربي بدمشق، لكن الأهم في الجوانب المعرفية عند السيد الأمين صفته كمؤرخ وفي هذا خصوصاً كان غزير المعرفة وترك آثاراً مميزة وهامة من المؤلفات.

ولاتنفصل حالة البروز المعرفي ـ الاجتهادي عند السيد الأمين عن موقف ذي طبيعة وطنية اتخذها في المواقف من سياسات الانتداب الفرنسي في سوريا، التي كانت سياسات طائفية تجزيئية من جهة، وهي استعمارية قهرية في الجهة الأخرى، ولعل الأبرز في ذلك موقفه من «قانون الطوائف» الذي أصدره الفرنسيون، وقد عارضه علماء دمشق بقوة، فرد الفرنسيون بإستثناء «الطائفة السنية» على أمل قبول بقية الطوائف ومنهم الشيعة، فالتزم السيد الموقف العام المعلن للمسلمين، لما فيه من اتفاق مع نص الشرع ومصالح المسلمين، ورفض وساطات ساقها الفرنسيون له لقبول منصب زعامة للطائفة الشيعية رفضاً قاطعاً.

وفي عداد المواقف المهمة التي اتخذها السيد الأمين قيامه بتصعيد الموقف الوطني في دمشق لمواجهة شركة الحر والتنوير الفرنسية في

خلافها مع الأهلين في دمشق، وهي المعركة التي كانت مقدمة الاضراب الستيني الشهير في تاريخ البلاد والذي قاد عام ١٩٣٦ الى المفاوضات الفرنسية ـ السورية نحو المعاهدة وبعدها فتح بوابة قضية الاستقلال الوطني.

والنزعة التوحيدية في محتواها الوطني والديني عند محسن الأمين كانت سلوكاً ظاهراً واضحاً لا لبس فيه ولاغموض على نمو مامر في موقفه من التقسيم الطائفي الذي حاوله الفرنسيون أيام الانتداب، وتكرر الأمر تالياً بعد الاستقلال، إذ أصدرت الحكومة السورية قراراً بتوزيع مقاعد مجلس النواب السوري على «الطوائف والأقليات» فبادر الى تقديم كتاب للحكومة يعلن أن الشيعة تعتبر المسلمين جماعة واحدة لافرق بين سني وشيعي في هذا المجال.

والملامح العامة السابقة عن حياة الرجل وممارساته لاتمثل سوى قدر متواضع مما كان عليه، وثمة جانب مهم وبارز في حياته الفكرية والعملية، وهو الشيء الذي اشتهر به على نحو خاص، وهو الجانب الاجتهادي في ميدان الاصلاح الديني، وفي هذا يمكن القول إجمالاً أن السيد الأمين تصدى الى كثير من الجوانب السلبية في الحياة الاسلامية، وفي حياة الشيعة على وجه الخصوص ومن ذلك، ماكان يجري أثناء الاحتفال بيوم عاشوراء وهو يوم مميز لدى المسلمين الشيعة، فعمل على تنقية احتفالات ذلك اليوم من مظاهر تختلط فيها «البدع» مع «المظاهر المنكرة» و«إيذاء النفس وإدخال الضرر عليها».

وأضاف في جانب آخر تدقيقه في الأحاديث «الدينية» والروايات

المنقولة المتناقلة، والتي قد تتعارض في سياقها ومنطقها مع أساسيات المبادىء الاسلامية، وغالباً ماكان يجري تداولها في الأوساط الاسلامية وقد كانت تفتقد للمنطق أساساً، وهو ماجهد السيد الأمين لجعله موجهاً ومرتكزاً في الحياة العقيدية والعملية.

تراث فكري وثقافي غني ومنوع:

لقد ترك محسن الامين تراثاً فكرياً وتاريخياً غنياً ومنوعاً، يقدم الأهم في ملامح حياته وتجربته وأفكاره، وفي مقدمة ذلك التراث موسوعته التاريخية الادبية «أعيان الشيعة» والتي أصدر منها أكثر من أربعين مجلداً ركزت في مقدمتها على التآخي الاسلامي «بين السنة والشيعة» و«نبذ العداوة بينهم»، وبين مؤلفاته في التاريخ «تاريخ جبل عامل» و«حرب الجمل» و«حرب صفين» وفي موضوعات الفقه والعلوم الدينية كثير منها «أساس الشريعة» و«حذف الفضول عن علم الأصول» و«الدر الثمين» وفي موضوعات اللغة والنحو الصرف ترك «الاجرومية الجديدة» و«المنيف في علم الصرف»، ومن أثاره في ميدان الشعر ديوان «الرحيق المحتوم» و«أبو نواس الحسن بن هاني» و«أبو فراس الحمداني».

والمميز في التراث الذي خلفه السيد الأمين تلك الكتابات السجالية والنقاشية في «الرد والنقود» وقد تناول فيها أفكاراً ومواقف تداولتها صحف ومجلات وكتب لكتّاب ومؤلفين عاصروه، واختلفوا ـ بدرجة أو بأخرى ـ معه و منهم محمد كرد علي، وجميل الزهاوي، ورشيد رضا، وعبد القادر المغربي، وأهمية هذا الجانب من تراث الرجل أنها كانت تنشر على صفحات مجلات وجرائد ذلك الزمان ومنها

«المنـار» و«العرفـان» و«الأحـوال» وغيرهـا مـن كبريـات الدوريـات والنشريات العربيـة، ممـا كـان لـه آثـر فـي تطويـر البنيـة المعرفيـة، وفتـح الأبواب أمام النقاشات والحوارات.

لقد لخص د.شـاكر الفحـام القيمـة الفكريـة والعمليـة لحيـاة السـيد الأمين بالقول: «أن من يتتبع سـيرته وأعمالـه وطريقتـه، و«يطـالع مؤلفاتـه ومقالاته» لايملك إلا أن يكبر هذه العبقرية الفذة، التـي اجتمـع لهـا العلـم الواسع الغزير، والاستقامة في السلوك والعمـل، والانقطـاع الـى الاصـلاح والارشاد..» وكانت تلك من بين مزايا جعلت اسـم السـيد الأميـن يطلـق على أحد أحياء دمشق بقرار من حكومتها عرفاناً بمـا كانـه الرجـل الـذي توفي في العام ١٩٥٢.

محمد أمين الحسيني:
الشخصية السياسية المتعددة الأبعاد

كثيرون الذيـن عرفـوا الحـاج محمـد أميـن الحسيني، وأكثر منهـم اللذين اختلفوا معه أو اتفقـوا، بهـذا المعنـى كـان الرجـل موضـع خـلاف واختلاف، أو بمعنى آخر كـان رجـلاً يثير الجـدل، ومـازال بعـد رحيلـه بعشرين عاماً، رجل السؤال الضائع: من هو المفتـي؟.. تلـك الصفـة التي اشتهر بها اختصاراً.

النشأة الأولى:

ولد محمد أمين الحسيني في القدس أهم مـدن فلسـطين في العام ١٨٩٥، ومثل أبناء الـذوات في أواخر القرن المـاضي تعلـم في إحـدى مـدارس القـدس الرسمية، ثم اختار له والده طريقة التعليم الخاص الذي يختلط به الديني بـالدنيوي، فتلقى على يد عدد من علماء القدس وأساتذتها، فنشأت فيه تلك الثقافـة والمعرفـة المزدوجة، والتي أضيف لها تعلم الفرنسية في كليـة الفريـر بـالقدس، وزاد اليهـا أن أرسله والده الى استانبول للدراسة هناك، فاختار الانتسـاب الـى الكليـة العسـكرية، وخدم في الجيش العثماني، لكنه تركه على أعتاب الثورة العربية البقاء في فلسطين عاملاً في سبيل الثورة.

حاول البريطانيون بعد دخولهم فلسطين كسب ود الحاج الحسيني، فقلدوه وظيفه «مرافق خاص» للحاكم البريطاني، لكنه استقال بعد أشهر بسب معارضته سياسة بريطانيا في فلسطين، والتي اتسمت بتأييد ودعم الحركة الصهيونية ومشروعها الاستيطاني في فلسطين، وبذلك انتقل «الحاج» الى موقع معارضة الانكليز والصهياينة وسياستهما الفلسطينية.

البدايات الأولى:

والبدايات الأولى في نشاط محمد أمين الحسيني في ميدان العمل الوطني كانت تأسيس أول منظمة سياسية عرفتها فلسطين في التاريخ الحديث، عندما بادر وأصدقاء له الى تأسيس «النادي العربي» في القدس الذي صار الحسيني رئيساً له بالانتخاب، ومن داخل تلك الهيكلية، انطلقت فكرة «الجمعيات الاسلامية- المسيحية» الفلسطينية، وهي محاولة التجسيد الأولى للروح الوطنية الفلسطينية في مواجهة الغزوة الاستيطانية والهيمنة الاستعمارية البريطانية، واستمر نشاط هذه الجمعيات سنوات كثيرة الى أن أخذت الحركة الوطنية الفلسطينية أشكال جديدة في تنظيماتها السياسية والاجتماعية، بما فيها الأحزاب والجماعات السياسية.

ثلاثة أبعاد:

شارك الحاج في الأنشطة العامة منذ العشرينات بهمة ودأب وفعالية، وامتدت نشاطاته في تلك المرحلة في ثلاثة أبعاد، الأول هو بعد وطني شمل مختلف أنحاء فلسطين بكل مدنها وقراها شمالها وجنوبها، شرقاً وغرباً، ولم يثنه عن ذلك خصومات سياسية له بدعم من البريطانيين.

والبعد الثاني لنشاطات المفتي كان البعد العربي، حيث حاول توحيد الجهود العربية من أجل خدمة القضية الفلسطينية، وفي ذلك استغل معارفه وصلاته مع العديد من الشخصيات والقوى في الأقطار العربية، وبخاصة المحيطة بفلسطين، وكان لذلك أثر مهم على الصعيدين الشعبي والرسمي، حيث نشطت النخب العربية في كل المستويات شعبياً ورسمياً، لدعم النضال الفلسطين وفي عداد ذلك كانت المشاركة الشعبية في الثورة الفلسطينية الكبرى ١٩٣٦-١٩٣٩، وفي حرب فلسطين عام ١٩٤٧-١٩٤٩، وكان أثر الجهات الرسمية العربية في دعم النضال الفلسطيني مجسداً على أكثر من صعيد منها انعقاد المؤتمرات، وتنظيم الندوات والاجتماعات العربية، إضافة الى زياراته المتكررة الى الأقطار العربية التي عمل من خلالها على توحيد الصف العربي وتقويته في الموقف من قضية فلسطين ودعم نضال الفلسطينين في كفاحهم.

أما البعد الثالث في نشاطات الحاج أمين من أجل القضية الفلسطينية، فكان بعداً إسلامياً، وقد أتاحت له شخصيته الاسلامية صلات واسعة وعميقة مع كثير من الشخصيات والجماعات في العالم الاسلامي فزار كثيراً من البلدان الاسلامية، وكسب تأييد الشخصيات السياسية والاجتماعية لصالح الكفاح الفلسطيني، وفي ذلك دعماً مالياً وسياسياً واسعاً للقضية الفلسطينية على مدى عقود، كما وفدت مجموعات من متطوعي البلدان الاسلامية للقتال الى جانب الفلسطينيين. هذا علاوة على المؤتمرات الاسلامية التي انعقدت بفعل نشاطات المفتي وكان من أبرزها مؤتمر القدس عام ١٩٣١ المنعقد في المسجد الأقصى، وهو واحد من

مؤتمرات عقدت في مكة وكراتشي وبغداد وعمان والصومال تحت إشراف ورئاسته المفتي.

إن الأبعاد الثلاثة في شخصية وكفاح محمد أمين الحسيني، كانت موظفة ومكرسة لخدمة نقطة واحدة ومركزية هي القضية الفلسطينية بماتمثله من حالة بلد وشعب مهددين بالضياع بفعل المشروع الصهيوني من جهة، وبفعل السياسة البريطانية من جهة والمشروع الصهيوني من الجهة الأخرى، الأمر الذي جعل جهود الحاج الحسيني منصبة باتجاه تأسيس حالة كيانية فلسطينية، تبرز فيها خصوصيات هذه المنطقة في أبعادها المختلفة الإنسانية والجغرافية.

وبدايات «الكيانية» الفلسطينية على نحو ما تجسدت لدى الحاج أمين الحسيني كانت في إبراز تنظيمات وهيئات سياسية واجتماعية ثقافية وعسكرية خاصة بفلسطين، وفي ذلك كانت ممارسته السياسية مختلفة عن ممارسة معاصريه الذين كانوا في اتجاههم العام أبناء مشروع «قومي» مقتصر على مدى بلاد الشام والعراق والجزيرة العربية، وكثيرون منهم كانت حدود مشروعهم القومي «سوريا الكبرى».

والتجسيدات السياسية الاجتماعية «الكيانية» الفلسطينية المبكرة لدى محمد أمين الحسيني، كانت في تشكيله مع رفقائه «النادي العربي» في القدس ثم «الجمعيات الاسلامية - المسيحية» التي عمَّ وجودها معظم مدن فلسطين، وبعدها تأليف «المجلس الاسلامي الأعلى» وآخرها - وربما- أهمها «اللجنة العربية العليا لفلسطين» التي حاولت التصدي للنتائج العملية لحرب فلسطين (١٩٤٧-١٩٤٩) بعقد مؤتمر فلسطيني

في غزة وتشكيل «حكومة عموم فلسطين» برئاسة أحمـد حلمـي غير أن السياسة العربية، منعت تطوير تلك الخطوة وحاصرتها الى حد الموت، وإنهاء هذا التوجه الكياني بصفته الاستقلالية.

وفي المنحى الاقتصادي أشرف المفتي ونظم العديد من البنى والعلاقات الهادفة الى تكريس حالة اقتصادية فلسطينية مميزة وبخاصة في الأنشطة المالية والعقارية، الهادفة الى حماية الأرض ومنع انتقالها الى أيدي المستوطنين اليهود ومنظماتهم ولعل الخطوة الأهم من الناحية العملية كانت تنظيم شؤون الأوقاف الاسلامية وتحويل عقارات ومبان كثيرة الى أوقاف حفاظاً على طابعها العربي - الاسلامي المميز وملكيتها.

إن الأهم في الكيانية الفلسطينية التي بادر اليها مبكراً محمد أمين الحسيني، كانت محاولته تنظيم بنى عسكرية تأخذ المقاومة بأيديها، وتتقدم للدفاع عن البلاد وسكانها في مواجهة المشروع الاستيطاني الصهيوني وتنظيماته المسلحة، وبدأ جهده المبكر في نشاطات محدودة، مالبثت أن بلغت مداها في تأليف «قوات الجهاد المقدس» وسلم قيادتها الى عبد القادر الحسيني أحد أبرز رجال الكفاح المسلح والذي استشهد في معركة القسطل إبان حرب فلسطين (١٩٤٧-١٩٤٩).

غير أنه ينبغي التمييز بعمق بين توجه المفتي الحسيني نحو الكيانية وتوجه الذين أتو من بعده سالكين الطريق عينه. ذلك أن الرجل، لم يقطع في أي من تجاربه ومساعيه ونشاطاته بين الكيانية الفلسطينية ومحيطها، بل دائماً ماكان يوثق ويعزز الصلات بين فلسطينية الكيانية وبعديها الآخرين العربي والاسلامي، ويربط بينهما بقوة عبر خيوط شبكات قوية،

لاتنقطع تحت كل الظروف والموجبات.

لقد حاول الحسيني بكل الطرق والأساليب وعبر كل القنوات والوسائط السياسية والاقتصادية - الاجتماعية والثقافية والاعلامية وصولاً الى العسكرية، أن يجسد حالة تستطيع أن تصمد في وجه مشروع الاستيطان، وتحاول دحره، حالة كيانية تتوافق حيناً، وتختلف في أغلب الأحيان مع سياسة بريطانيا في فلسطين الى حد الصدام معها، وبهذا فقد تراوحت حياة الحاج محمد أمين الحسيني بين الرضا البريطاني وبين الغضب عليه الى درجة الملاحقة والاعتقال مرات الى جانب التشهير السياسي لكنه في كل الأحوال كان عدواً لاتلين قناته في مواجهة الصهيونية مشروعاً وكياناً حتى آخر لحظة في حياته، التي وضعت رحالها قبل عشرين عاماً.

محمد عزة دروزة:
المناضل والمؤرخ

ينتمي محمد عزة دروزة المناضل والمؤرخ الى جيل رواد الحركة القومية العربية الذين أطلوا مبكرين على عصر النهضة فانشغلوا بكل تفاصيله السياسية والفكرية، الثقافية والاجتماعية، وفي غمرة انشغالاتهم، اختلطت همومهم وتوزعت أنشطتهم في الأنحاء والأرجاء، وفي شتى الموضوعات على تعدديتها وتنوعها، ولعل دروزة بما كان يمثل حالة نموذجية لذلك النمط من رواد الحركة القومية العربية، فقد كان في بنيته الفكرية اسلامياً وعروبياً وميالاً الى تحقيق العدالة الاجتماعية، وفي السياسة كان في وسط الحركة الشعبية على النحو الذي كان في علاقته بالنخبة، وليس ذلك إلا مؤشراً فحسب على تلك الاختلاطات المعقدة التي عاشها وعايشها رجال الحركة القومية العربية الأوائل الذين أطلوا مع عصر النهضة في أواخر القرن التاسع عشر، ومطلع القرن العشرين.

المولد والنشأة:

ولد محمد عزة دروزة بن عبد الهادي في حزيران (يونيو) ١٨٨٨ لعائلة متوسطة في مدينة نابلس بفلسطين، وهناك تلقى تعليمه الأولي منهياً

المرحلة الاعدادية عام ١٩٠٦، ومنه افتتح بوابة العمل في الوظيفة العامــة، وقد كانت مطمحاً لأبناء الفئات الوسطى، ومنها أخـذ يتنقـل موظفـاً فـي دائرة البريد العثمانية ما بين فلسطين ولبنان ومصر ومن خلال عمله ذاك - على نحو ما كتب في مذكراته - فتح نافذة علـى الأفكـار والثقافـة مطـلاً على الحياة.

أعطت ظروف حياة دروزة العملية في بساطتها فرصة فريــدة لـلرجل لتطوير حياته في اتجاهات معينة من خلال الاطلاع على سيل المطبوعات من مجلات وجرائد وكتب مختلفة، كـانت تمـر تحـت يـده فأشـبع مـن خلالها تعطشه ونهمه للقراءة والمعرفة، التي لم تتيسر لـه بمتابعـة تعليمـه العالي على نحو ما كان أبناء النخبـة فـي حينهـا، وأتـاح لـه ذلـك الوضـع الاتصال المبكر بعالم الكتابة الصحافية الناشطة في المركز العربــي الممتـد بين مثلث القاهرة بيروت، دمشق والمتضمن في القلب فلسطين.

وبحكم تلك الوقائع والعلاقات وطبيعــة حياتـه، تعـرف محمـد عـزة دروزة الى كثير من شخصيات مهمـة فـي النخبـة العربيـة الصـاعدة، كـان بينهم صحافيون ورجال سياسة ومفكرون وهكذا وجد طريقــاً معبـداً الـى الصحافة والسياسة وعالم الأفكار فخاض بها جميعاً في وقت واحد.

تعرف في بداية علاقاته بالصحافة الـى الصحافـة اللبنانيـة والمصريـة، وكان الأبرز في الثانيـة «المؤيـد» و«المقطـم» و«المقتطـف» و«المنـار» و«الهلال» وفيها كانت تتناوب أقلام كبار الكتاب العرب تتناول مختلـف القضايا والأفكار، مختلفة أو متفقة وسط أجواء تسـمح بنقاشـات واسـعة ومعمقة، هي تعبير بارز عن تعددية طبعت تلك المرحلة بسمات خاصة.

وأضـاف دروزة الـى معرفتـه بالصحافـة المصريـة معرفـة بالصحافـة الفلسطينية واللبنانية، ومن الاخيرة عرف «الحقيقة» البيروتية التي نشر فيها أول كتاباته في أعقاب إعلان الدستور االعثماني ١٩٠٨.

أما في السياسة فقد كانت الخطـوات أبعـد مـدى وأكثر أهميـة. إذ أخذ دروزة يتقلب مختـاراً بيـن المنـابر، وبعـد اكتشـافه حقيقـة «جمعيـة الاتحاد والترقي» الشوفينية التركية، شارك مـع رفـاق لـه فـي تـأليف فـرع نابلس لحـزب المعارضـة العثمانيـة «الائتـلاف والحريـة» ثـم مـا لبـث أن انتسب الى جمعية «العربية الفتـاة» فـي عـام ١٩١٦ بعـد لقائـه بـالدكتور أحمد قدري، وبذلك انخـرط دروزة فـي التيـار العـام الـذي طبـع تجربتـه لاحقاً وفي ظلاله مارس أهم نشاطاته السياسية، إبان استلام رجال الحركة القومية العربية السلطة في دمشق بعد خروج الأتراك العثمانيين منها.

القومي والوطني:

انخرط محمد عزة دروزة في النشاط العربي العام في ظـل الحكومـة العربية في دمشق عام ١٩١٨، وكانت البداية في كونه مندوباً عن نـابلس في المؤتمر السوري الذي كان بمثابة «برلمان لبـلاد الشـام» أو «سـوريا الكبرى» على نحو ماكـانت تسـمى فـي بعـض الأحيـان، وبعـد أن اختـير دروزة سكرتيراً للمؤتمر السوري، ساهم الى جانب آخرين في وضـع أول «مشروع دستور» لسوريا، وشغل عضوية «الهيئة المركزية لجمعية العربية الفتاة» كما كان عضواً فاعلاً ومؤسسـاً فـي «حـزب الاسـتقلال العربـي» المؤسس في دمشق ١٩١٩ باعتباره واجهة علنية لـ«العربيـة الفتـاة» ومـن خلال تلك المهمات السياسـية والتنظيميـة التـي اشـتغل بهـا دروزة، قـدم

جهده في خدمة الحركة القومية العربية وسياسات حكومتها بدمشق الطامحة الى وحدة العرب واستقلالهم، ومقاومة المخططات الاستعمارية الانكلو - فرنسية، وحركة الاستيطان الصهيوني في فلسطين وعندما سقطت الحكومة العربية بعد معركة ميسلون واستشهاد وزير الحربية يوسف العظمة، غادر دروزة الى فلسطين ليبدأ شوطاً جديداً من حياته مساهماً في نضالها ضد الانتداب ا لبريطاني وفي مواجهة الحركة الصهيونية ومشروعها الاستطاني.

وتؤرخ عودة دروزة الى فلسطين عام ١٩٢٠ لتطور خاص في حياة الرجل الذي وإن لم يغادر فكره وسيرته السياسية القومية العربية، إلا أنه انخرط في ميدان أكثر تخصصاً، وكان الأكثر حرارة وقرباً منه في ذلك الوقت، وهو العمل الفلسطيني، وهو ما سيمضي الرجل بقية حياته مركزاً عليه دون أن يفقد صلاته وعلاقاته الوثيقة بمحيطه القومي في البعدين الجغرافي والبشري.

لقد استهل محمد عزة دروزة عودته الى فلسطين بالمشاركة في تشكيل وقيادة العديد من التنظيمات السياسية والشعبية، وفي عداد ذلك كانت - «الجمعية الاسلامية - المسيحية» و«المؤتمر القومي العربي» الذي انعقد بالقدس عام ١٩٣٢، و«حزب الاستقلال العربي» و«اللجنة العربية العليا» ثم «الهيئة العربية العليا» التي كانت آخر محطات نشاطه السياسي العام، وقد غادرها معترضاً على أسلوب العمل فيها، وفي غضون تلك المسيرة الطويلة من الممارسات السياسية قدم الرجل جهوداً ومساهمات جعلت منه أحد أبرز رواد الكفاح السياسي، وأحد أهم

شخصيات الحركة الوطنية الفلسطينية لثلاثة عقود تمتد ما بين بداية العشرينات الى أواخر الأربعينات.

وعدا نشاطه السياسي العام، انخرط دروزة في النضال الشعبي المباشر مشاركاً في التظاهرات التي اجتاحت فلسطين في العشرينات والثلاثينات، وكان بين الذين هيأوا ثورة فلسطين الكبرى ١٩٣٦-١٩٣٩ ودفعوا بها للتمدد والانتشار، وضخوا في شرايينها نسغ الحياة بالدعم المادي والمعنوي، وهو ما قام به متابعاً من منفاه في دمشق بعد مغادرته فلسطين حين أشرف على إدارة شؤون التموين والتمويل والاعلام للثورة الفلسطينية، مستفيداً من جملة علاقاته وصلاته ومعرفته بالأوساط السياسية والشعبية السورية لدعم الثورة.

وكان من الطبيعي ونتيجة لنشاطاته المختلفة والمتنوعة أن تتم ملاحقته، وأن يعتقل، ويزور سجوناً ومعتقلات منها معتقل «صرفند» في فلسطين، وكل من «سجن المزة» و«سجن القلعة» - دمشق في سوريا، كما تعرض للنفي والابعاد عدة مرات متنقلاً ما بين مناطق بلاد الشام، غير أن الأهم في ذلك مغادرته الى تركيا من دمشق في معظم سنوات الحرب العالمية الثانية، وقد استقر بعد هزيمة عام ١٩٤٨ وقيام الكيان الصهيوني في دمشق، ومن الاخيرة، تابع ما يمكن القيام به من جهد فكري وتنظيمي من أجل القضية الفلسطينية خصوصاً والقضية العربية عامة.

المفكر والمؤرخ:

اهتم محمد عزة دروزة خلال الفترة الممتدة ما بين أواخر الأربعينات وأواسط الثمانينات بمتابعة الشأن العربي العام وخصوصاً الشأن

الفلسطيني، فاهتم بتطورات الاحداث في مصر عقب ثورة «الضباط الأحرار» عام ١٩٥٢، والأحداث في سوريا خلال الخمسينات، وكان أحد الداعين والمشجعين بحماس للوحدة السورية - المصرية عام ١٩٥٨، وفي شق آخر من اهتماماته، كان يتابع النشاطات الفكرية والتنظيمية في الساحة الفلسطينية، ومنها المبادرة الى تأليف «حركة فتح» وإبراز منظمة التحرير الفلسطينية، وقد تم اختياره عضواً في الدورة الأولى للمجلس الفلسطيني بالقدس عام ١٩٦٤ وفيه تم اقرار «الميثاق القومي» الفلسطيني.

وامتدت انشغالات دروزة في هذه المرحلة الى مساهمات كتابية هامة، وكان ذلك في اتجاهين أساسيين أولهما اتجاه ثقافي - فكري غلبت عليه ثقافة دينية - اجتماعية هي امتداد لبدايات كتاباته التي ظهرت في العشرينات وفي سياقها كانت بعض مؤلفات الرجل مثل «القرآن والمرأة» و«القرآن والضمان الاجتماعي» و«بنى اسرائيل في أسفارهم» وغيرها من مؤلفات.

والاتجاه الثاني في الكتابات تناول القضايا العربية وفي المقدمة قضية فلسطين، وفي هذا تداخلت صفة المفكر والمؤرخ وكان من نتائج هذا الاتجاه مؤلفات من طراز «مختصر تاريخ العرب والاسلام» و«حول الحركة العربية الحديثة» و «القضية الفلسطينية في مختلف مراحلها»، و «جهاد الفلسطينيين» و « قضية فلسطين والوحدة العربية» وغيرها كثير.

لقد زاد العدد الاجمالي لمؤلفات محمد عزة دروزة على خمسة وثلاثين كتاباً، تناولت موضوعات كثيرة ومتنوعة إضافة الى ما كان يعده

الرجل من كتابات لتصدر في مؤلفات مستقلة، أو يتم الاستفادة منها في كتابة مذكراته التي تغطي تلك الحياة الفنية المديدة التي عاشها دروزة، والتي كان يقول أنها امتدت مئة عام فلسطينية، انتهت قبل نحو عشر سنوات عندما أغمض الرجل عينيه مختتماً حياة مليئة لإنسان ومناضل ومؤرخ عاش من أجل أمته ووطنه ووهبها الكثير من حياته.

محمد علي الطاهر:
قلم حر وذاكرة من ذهب

كتب أحمد بن سودة الشخصية المغربية المعروفة، ذات يوم يصف محمد علي الطاهر قائلاً: «لم أعرف في حياتي ورحلاتي.. رجلاً يحمل هموم العالم العربي والاسلامي، وينذر لها كل مايملك من نفسه ومشاعره ورحلاته، مثل.. محمد علي الطاهر.. كان فلسطيني المولد والنشأة، والأرض والتاريخ، ولكنه كان إسلامي العقيدة عربي الانتماء والهوية، لايتوانى للحظة في إشهار تأييده ومناصرته وانحيازه الى كل ثائر على الظلم، ومكافح من أجل الحرية.

طريق الى الصحافة:

ولد محمد علي الطاهر في مدينة نابلس بوسط فلسطين عام ١٨٩٦، وتلقى تعليمه الأولي في أحد كتاتيب المدينة، فنال تعليماً يشمل اللغة العربية والعلوم الدينية الى جانب علوم أولية أخرى، ومنها أخذ يطور إمكانياته المعرفية والثقافية ذاتياً بصورة واسعة من جهة ومعمقة في الجهة الأخرى.

ومنذ سنوات شبابه الأولى اهتم محمد علي الطاهر بالصحافة وانشغل فيها فتقدم ليعمل مراسلاً لجريدة «فتى العرب» البيروتية عام ١٩١٤، وفي ذلك العام كتب أول رأي له في موضوع الصهيونية، عنوانه «الصهيونية في فلسطين» الأمر الذي كان يعكس اهتماماً مبكراً بالشأن العام والقضايا الساخنة في الحياة العامة الفلسطينية.

ومع اندلاع الحرب العالمية الأولى غادر الطاهر فلسطين الى مصر آملاً في الإفلات من القبضة العثمانية، لكنه تعرض هناك الى الاعتقال من قبل الانكليز فتم اعتقاله لمدة عامين في معتقل الجيزة (١٩١٥-١٩١٧) وعندما أطلق سراحه عاد الى فلسطين ليتابع مسيرته في صحافتها، فشارك في تحرير صحيفة «سوريا الجنوبية» التي كانت تصدر في القدس، وشغل منصب مدير البريد والبرق في نابلس التابع لحكومة فلسطين، وإبان هذه الفترة اطلع على خطط سلطة الانتداب ومساعيها لتنفيذ المطامع الصهيونية المستندة الى وعد بلفور، فاستقال من وظيفته، وغادر الى مصر.

وفي القاهرة التي وصلها بعيد نهاية الحرب بقليل، بدأ محمد علي الطاهر نشاطاً سياسياً وصحافياً مزدوجاً ومميزاً، فعمل على تأليف «اللجنة الفلسطينية» عام ١٩٢٠ وتولى رئاستها، كما انكب على كتابة واسعة النطاق محورها القضية الفلسطينية، وفي هذا الاتجاه جاءت كتاباته في جريدة اللواء المصري محذرة من مخاطر الصهيونية، ومن المساعي البريطانية لإقامة دولة يهودية في فلسطين.

لقد طور محمد علي الطاهر جهده في عالم الصحافة العربية، فأصدر في القاهرة جريدته «الشورى» ومعها أصدر عدة نشرات بإسم مكتب الاستعلامات العربي - الفلسطيني عبر عن جرائم الانتداب في سوريا وفلسطين، فيما كانت جريدته الموصوفة بأنها «جريدة تبحث في شؤون البلاد العربية والأقطار المستعبدة» تأخذ على عاتقها معالجة القضايا العربية كافة على امتداد الأقطار العربية من الخليج الى المحيط مما أوغر صدر البريطانيين، فصادروا أعداد الجريدة، واضطر الطاهر الى إغلاقها في العام ١٩٣١، وأعاد إصدارها عدة مرات بأسماء منها «الرقيب» و «المناهج» و«الناس» وغيرها.

تابع محمد علي الطاهر حياته الصحافية بنشاط حتى الأربعينات، واتجه بعدها الى فن آخر من الكتابة غلبت عليه المذكرات والذكريات، وفي هذا ظهرت أهمية الذاكرة التي حملها الرجل في حياة مليئة بالمعلومات والأحداث، والأرقام والوقائع التي شكلت الأساس لمؤلفات كان في عدادها «أوراق مجموعة» الصادرة عام ١٩٤٨ و «معتقل الهاكستيب» الذي صدر عام ١٩٥٠، و«ظلام السجن» المطبوع عام ١٩٥١، و«ذكرى الأمير شكيب ارسلان».

الوطني والقومي في صحافة الطاهر:

اهتم محمد علي الطاهر في نشاطاته الصحافية سواء من جانب الكتابة والمعالجة، أو في موضوع ادارة الصحافة بتنسيق الموضوعات الوطنية (الفلسطينية) مع الموضوعات القومية (العربية) فعالج جوانب مختلفة من الموضوعات رابطاً بينها بصورة مباشرة أو غير مباشرة الأمر

الذي بدا وكأنه خروج عن فلسطينية المولد الى أفق أرحب، وهو الانتماء للعرب، ليس بالمعنى الضيق والذي كان شائعاً في أيامه وكان كاد يقتصر على «المشرق العربي» بل بالمعنى الواسع الذي يضم ويربط بين مشرق أرض العرب بمغربها.

وإذا كان محمد علي الطاهر بدأ حياته الصحافية مراسلاً ثم كاتباً في الموضوعات الفلسطينية ومايتصل بها من شؤون في موضوعات الصراع العربي – الصهيوني، فإنه مد إهتمامه لاحقاً الى القضايا الساخنة في محيطه العربي، من العراق شرقاً الى المغرب في أقصى شمال افريقيا مروراً بشرقي الأردن والعربية السعودية الى مصر وليبيا وتونس والجزائر.

لقد استوقفته تطورات الأوضاع العامة في البلدان العربية بنفس الأهمية التي توقف فيها عند الأحداث الفلسطينية وتطوراتها، على سبيل المثال، فإن الطاهر الذي عاش حياته الصحافية والسياسية في فلسطين مقاوماً للصهيونية ونشاطاتها، مارس ذات المهمة إبان إقامته الطويلة وعمله في مصر، ومثلما كتب عن ثورة فلسطين الكبرى (١٩٣٦-١٩٣٩) كان قد كتب عن ثورة سوريا الكبرى (١٩٢٥-١٩٢٧)، فنشر بيانات الثورة في جريدة «الشورى» كما نشر مقالات ومعالجات رجالات الثورة والقادة السوريين الخاصة بالثورة، ولم يهتم فقط بما كانت تنقله وكالات الأنباء من موقع الثورة، بل كان يعتمد أيضاً على مراسلين خاصين بجريدته من مواقع الثورة في دمشق والغوطة وجبل العرب وغيرها، وفي ذلك كان ثمة تماثل مع التغطية الثقافية التي قام بها محمد علي الطاهر من خلال صحيفتي «الشباب والعلم» اللتين كانتا قد صدرتا في مصر

لموضوعات ثورة فلسطين الكبرى متناولاً الظروف العامة والداخلية للثورة والبناء العام ثم العمليات القتالية والاجراءات البريطانية الرامية الى قمع الثورة وتصفيتها والتعاون البريطاني الصهيوني والارهاب الصهيوني في مواجهة الثورة وعمليات تصفية خونة الثورة وما اليها من موضوعات.

وعالجت الصحف التي أصدرها الطاهر موضوعات التحرر والسعي من أجل الاستقلال في غالبية الأقطار العربية، داخلاً في التفاصيل سرداً وشرحاً، مبيناً المشكلات الرئيسية الواقعة في مواجهة التحرير والاستقلال وموضحاً الآفاق التي يمكن أن تتطور اليها حركات التحرر ومستقبلاتها الممكنة، وفي هذا برزت تأكيدات الصحف التي كان الطاهر يصدرها ويرأس تحريرها على أن الحرية والاستقلال هما المستقبل المؤكد لحركات التحرر ونضالات الشعوب لإنهاء استعبادها واخضاعها للأجنبي والمحتل. لقد تشاركت الصحافة التي كان يديرها محمد علي الطاهر في كثير من اهتماماتها ومعالجتها للقضايا مع صحف عربية أخرى اهتمت بذات الموضوعات والقضايا غير أن صحافة الطاهر «أبدت اهتماماً زائداً الى درجة التمييز في إطار الصحافة العربية بموضوعات عربية لأقطار المغرب العربي رابطاً بصورة واقعية بين جناحي الواقع العربي اللذين يربطهما الواقع والحلم وتوحدهما معطيات كثيرة في التاريخ والثقافة والتراث والآمال والرغبات المشتركة وغيرها من المعطيات».

حياة في ظل الارهاب:

إن مواقف وممارسات الطاهر كلفته أعباء ثقيلة بدأت مع بداية حياته في فلسطين عندما هرب من مظالم جمال باشا الى مصر، غير أن

البريطانيين هناك اعتقلوه وأودعوه في معتقل الجيزة لمدة عامين (١٩١٥-١٩١٧) بسبب نشاطاته ومواقفه السياسية، وبعد نهاية الحرب الأولى عاد الى موطنه آملاً العيش فيه، غير أن الانتـداب البريطـاني فـي فلسـطين، لـم يكن أرحم من جمال باشا في ملاحقة الوطنيين والقوميين العـرب فتعـرض الطاهر للإضطهاد البريطاني في فلسطين، فـانتقل مهـاجراً الـى مصـر وفـي هجرته الجديدة تم تعطيل جريدتـه التـي أصدرهـا، واعتقـل سـنة ١٩٢٥، كما تم تهديده بالطرد مرات قبل أن يجري اعتقاله في عـام ١٩٤٠، وقـد استطاع الهرب والعيش متخفياً لأكثر من عامين فـي مـدن مصـر وريفهـا، وكان آخر اعتقال تعرض له في عام ١٩٤٩. وعن حياته في ظل الارهاب والملاحقة كتب آلاف الصفحات مـن المذكـرات، وربمـا كـانت حياتـه تلك واحدة من حوافز هجرته الى لبنان في عام ١٩٥٥، حيث اسـتقر فـي بيروت لحين وفاته هناك عام ١٩٧٤ مسجلاً في ذلـك غياباً للقلـم الحـر والذاكرة التي كانت حزمة من التاريخ، أو كمـا وصفـه أحمـد بـن سـودة «مفكرة دقيقة، وجهاز تسجيل لكل الأحداث»!!.

محمد كرد علي: المعرفة الموسوعية

يكاد يتفرد محمد كرد علي واحداً من شخصيات عصر النهضة في المشرق العربي، بجمعه مواصفات يتداخل فيها الصحافي والكاتب والبحاثة المربي مع رجل السياسة لدرجة لايمكن معها إطلاق صفة واحدة من هذه الصفات على الرجل. ورغم أن كل هذه الصفات لاتكفي لوصفه، فهو إضافة لما سبق رجل علم ومعرفة شغل موقعاً مهماً في الخريطة المعرفية لبلاد الشام منذ أواخر القرن الماضي، وحتى بدايات الخمسينات.

بين الصحافة والسياسة:

ولد محمد كرد علي عام ١٨٧٦ من أصول عائلة كردية - شركسية، جاءت في السليمانية في العراق واستقرت في دمشق، وفي هذه المدينة تلقى تعليمه الابتدائي، وتابع تعليمه في المدرسة العازارية، وكان في النخبة الملتفة حول الأمير طاهر الجزائري، وفي تلك الحلقة أخذ وعيه المعرفي والاجتماعي يتفتح، الأمر الذي دفعه للإشتغال بالصحافة، وفي هذا أصدر جريدة «الشام» عام ١٨٩٧ وتابع إصدارها ثلاث سنوات قبل أن يهاجر الى مصر.

وخلال وجوده في مصر لمدة ثماني سنوات، عمق محمد كرد علي على علاقاته بمهنة الصحافة، فاشتغل في مجلة «المقتطف» وفي جريدة «المؤيد» وشيقيقتها «الظاهر» قبل أن يؤسس في العام ١٩٠٦ مجلته الشهرية «المقتبس». وقد جاء إعلان الدستور العثماني ليحدث نقلة هامة في حياة كرد علي، إذ دفعه ذلك للعودة الى دمشق والبدء بمشروع صحافي جديد فيها كانت ثماره جريدة «المقتبس» التي صدرت عام ١٩٠٨، وكانت إحدى أهم التجارب الصحافية في سوريا خلال تلك المرحلة، وقد تولاها نحو ست سنوات قبل أن يتركها لأخيه أحمد كرد علي، ويؤسس في العام ١٩١٤، جريدة «الشرق» وقد رأس تحريرها وادارتها حتى العام ١٩١٨ تاريخ مغادرته دمشق الى الاستانة لمدة عام.

عندما أعلنت الدولة العربية في دمشق بعد مغادرة الأتراك بلاد الشام، دخل محمد كرد علي في النسيج الثقافي المعرفي للدولة الوليدة، وكان من ثمار ذلك تأسيس المجمع العلمي العربي بدمشق الذي تم انتخاب محمد كرد علي رئيساً له في العام ١٩٢٠، وظل على رأسه حتى وفاته في العام ١٩٥٣، وقد ارتبط عمله في هذا الميدان بتحديد نشاطاته خارج سوريا، حيث تم انتخابه عضواً في مجمع الملك فؤاد الأول في القاهرة، وهو مجمع اللغة العربية.

سقطات السياسة:

وكثيراً من الذين تابعوا تطور الحياة الوطنية في سوريا بعد سقوط الحكومة العربية بدمشق في تموز (يوليو) ١٩٢٠ بعد معركة ميسلون يأخذون على محمد كرد علي مشاركته في الإدارات التي صنعها

الفرنسيون في سوريا، وهو أمر مفهوم خاصة عندما شارك الرجل في وزارة جميل الألشي، التي تألفت في ايلول (سبتمبر) ١٩٢٠ وتولى فيها حقيبة المعارف، وقد كررها ثانية في وزارة الشيخ تاج الدين الحسني الأولى مابين بدايات ١٩٢٨ وأواخر عام ١٩٣١ وفي هذه المرة تولى أيضاً وزارة المعارف، لكن الذي يشفع للرجل أنه كان يتولى منصباً تغلب عليه الصفة الفنية، وأنه كان لفترات قصيرة. غير أن ذلك لايغفر تلك السقطة السياسية لرجل نابغة ومهم مثل محمد كرد علي، الذي كان قد اطلع وعرف عن قرب المجتمعات والحياة السياسية ليس في البلاد العربية وتركيا التي تجول في أغلب أنحائها، بل في أوربا التي زار كثيراً من بلدانها وعرف مؤسساتها السياسية الثقافية والعلمية هناك، بما يساعده في اتخاذ مواقف مضادة للانتداب وسياساته، بل أنه لم يعارضه بصورة جذرية وحاسمة في الوقت الذي كان مطلوب مواقف كهذه.

المحصلة المعرفية:

لقد أثمرت حياة وتجارب ومعرفة محمد كرد علي مجموعة هامة من الآثار الفكرية والمعرفية، إضافة الى ماكتبه في الصحافة السورية والمصرية في حياته العملية التي قاربت عقود ستة، وفيها الشيء الكثير من القضايا الهامة، فقد خلف لنا مجموعة من الأعمال الهامة اشتهر كثيراً منها، وفي تعداد ذلك يندرج كتابه «غرائب الغرب» وفيه وصف لرحلات كرد علي الى أوربا، وقد صدر بالقاهرة في جزئين عام ١٩٢٣، وكذلك كتابه «كنوز الأجداد» وتناول فيه سيرة مجموعة كبيرة من العلماء. وقد أهداه الى الشيخ طاهر الجزائري اعترافاً بفضل الأخير عليه وعلى الثقافة

العربية، وصدر الكتاب بدمشق في العام ١٩٥٠، وثمة أثر مهم تركه محمد كرد علي يعكس الرؤية النقدية للرجل حيال المجتمع وأمراضه وهو كتاب «أقوالنا وأفعالنا» واستعرض فيه العادات والتقاليد والأخلاق السائدة في المجتمع العربي ووسائل اصلاحها، وطبع الكتاب في مصر عام ١٩٤٦.

وترك محمد كرد علي مذكراته في أربعة أجزاء، تناول فيها حياته وماشهدته من تطورات وأحداث في المستويات المختلفة، وصدرت تلك المذكرات في دمشق بين عامين ١٩٤٩-١٩٥١، الى جانب ماتقدم ترك كرد علي للمكتبة العربية مجموعة من الأعمال التراثية في العلوم والآداب والتراجم وقد حقق بعضها واختار وصنف بعضها الآخر، مقدماً إياها الى المكتبة العربية.

غير أن الأهم فيماخلفه علامة دمشق كرد علي من مؤلفات كتابه «خطط الشام» وهو في ستة أجزاء، يكاد يكون موسوعة عن الشام بمعناها الواسع، تناول فيه موضوعات من التاريخ والجغرافيا الى الثقافة والفنون والآداب الى الناس في أصولهم وعقائدهم وماطرأ على هذه الموضوعات على مدار حقب من الزمان.

إن فكرة الخطط - كمايقول محمد كرد علي بدأت على شكل مقالات في مجلة المقتطف المصرية عام (١٨٩٩) عن «عمران دمشق» وتطورت لاحقاً على قاعدة تقديم عمل واسع، وقد أتيح للمؤلف وهو شخصية موسوعية ذات ثقافة رفيعة، الاطلاع على مصادر أساسية تشمل مخطوطات غير منشورة ومحدودة التداول بما فيها تلك المحفوظة في

المتاحف والمكتبات الخاصة والعامة، وساعده في ذلك إجادة اللغتين التركية والفرنسية إضافة الى لغته الأم العربية، وتنقله بين دول ومدن شملت المشرق العربي وأوربا، وبخاصة الشام والقاهرة والمدينة المنورة، والاستانة، ورروميه وباريس واكسفورد وميونخ وبرلين وغيرها ثلاث رحلات الى أوربا، وأكثر من عقدين من سنوات العمر مضافة الى ثقافة متراكمة أنتجت «الخطط» التي لم يقدمها لنا كاتبها منبهراً، بل حذراً بصورة مبطنة ناقلاً لنا قول الثعالبي في الذي ألفه.. «إن أول مايبدو من ضعف ابن آدم، أنه لايكتب كتاباً فيبيت عنده ليلة إلا أحب في غدها، أن يزيد فيه أو ينتقص منه». وقد عبر كرد علي عن أمله بقول: «آمل أن يأتي غيري بعدي، فيتم هذه الخطوط التي رسمتها في بنيان كتاب «الخطط» ويصلح بمايتوفر من المواد ماراً بما وقعت فيه من الغلط والشطط».

منير الريس: الرجل المختلف حقاً

رحل منير الريس أواخر آذار (مارس) ١٩٩٢ وكان يحمل معه تجربة غنية، امتدت زمانها نحو تسعين عاماً أو يزيد، ربما كان اختصارها الوحيد تلك الجملة التي اختارها بابلو نيرودا شاعر التشيلي عنواناً لمذكراته، عندما كتب «أشهد أني قد عشت».

لقد كانت حياة الرجلين وتجاربهما متشابهة، كانت عريضة ومتدفقة، عاشها كل منهما الى حد الإشباع، ولكن مع فارق، إن بابلو نيرودا كان شاعراً ودبلوماسياً، قضى حياة هادئة ناعمة الى حد بعيد، فيما كان منير الريس مناضلاً وصحافياً، أمضى حياته يواجه التحديات والمصاعب المتتالية.

من هو منير الريس؟

ولد منير الريس في أسرة كبيرة في مدينة حماة على ضفاف العاصي قريباً من البوابة الغربية للبادية السورية أواسط عام ١٩٠١، وقضى جزءاً من طفولته في حماة ثم في بلدة الكرك شرقي الأردن بحكم وظيفة والده عبد الرحمن، وكان موظفاً عثمانياً، وتنقل منير في دراسته بين حماة والكرك ودمشق، قبل أن يلتحق بوظيفة في مديرية الديوان العامة عام ١٩١٩، ومتنقلاً في ريف حماة حيث سلخ بعض سنوات حياته.

وطبقاً لمعطيات، يشير اليها منير الريس في مذكراته، وتؤيدها الأحداث الكبرى والهامة التي عاشها المشرق العربي بداية القرن العشرين، فقد تركت ظروف الحياة العامة السياسية والاقتصادية والاجتماعية أثرها في تكوين شخصية الريس، لكن الأهم كان أثر البيئات التي عايشها الريس طفلاً وشاباً، وكانت بيئات متعددة ومتداخلة اختلطت فيها حياة التحضر المدني مع الحياة الريفية والبدوية، فأنجبت قيماً ومفاهيماً، تناقضت بصورة صدامية مع معطيات الواقع، الذي رفضه الريس وعمل على تبديله في مختلف أطوار حياته، وبطرق مختلفة، ونقتطف من مذكراته قوله: «لقد شهدت بنفسي... في مصياف كيف كان ضابط الاستخبارات أو المصالح الخاصة الفرنسي يتحكم بمصائر البلاد وسكانها كلهم، ويسيطر على الموظفين، ويقبض بواسطة جواسيسه وعملائه وجنوده على المتهمين بمساعدة الثوار من الفلاحين أو الاتصال بهم أو السماح لهم بالمرور من القرى أو الإقامة فيها، ويلقي بهم في غياهب السجون، أو يرسلهم الى أماكن التعذيب في القلعة، بل كان يجلب بعضهم الى مكتبة دار الحكومة، ويعذبهم على مسامع من الموظفين وأصحاب المصالح ويضعهم عراة على لهب البارود يشوي أجسادهم...».

لقد تكررت تلك المشاهد والوقائع المأساوية لوجود الاحتلال الفرنسي مرات عديدة أمام عيني الريس، وربما كان ذلك أحد العوامل الرئيسية في انخراطه في مقاومة الاحتلال مقاتلاً في ثورة ١٩٢٥ –

١٩٢٧. ثم صحافياً وسياسياً، يساهم في النضال الوطني من أجل التخلص من الانتداب وذيوله ومن أجل التحرر الوطني والاستقلال.

الطريق الى ثورة سوريا الكبرى:

مهدت المعطيات العامة والظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية، والمواصفات الشخصية لإنخراط منير الريس في الكفاح الوطني ضد الوجود الفرنسي في سوريا، وكان الريس في عداد من الذين التفوا حول فوزي القاوقجي في حماة لإطلاق الثورة فيها، وتم انتدابه للاتصال بقيادة الثورة السورية الكبرى في جبل العرب ورافقه في مهمته مواطنه مظهر السباعي، وقد أشار سلطان باشا الأطرش قائد ثورة سوريا الكبرى في مذكراته الى الواقعة، وتكرر اسم منير الريس في تلك المذكرات، ليس بصفته رسولاً لرجال ثورة حماة، بل بصفته أحد الوجوه البارزة التي انخرطت في العمل المسلح ضد القوات الفرنسية في معارك الجبل والغوطة والقلمون وشمال لبنان.

وتغرق يوميات الثورة السورية ١٩٢٥ - ١٩٢٧، ومذكرات القادة فيها على نحو ما ذهبت مذكرات الشهيد سعيد العاص «صفحات من الأيام الحمراء» في وصف بطولة وشجاعة منير الريس، وقد رافق العاص في مختلف تنقلاته ومعاركه، ولم يقتصر بروز مساهمات منير في الثورة على قتاله، بل أضاف الى ذلك مساهماته في محاولات اصلاح الثورة من الداخل، وتصويب اتجاهاتها وسلوكيات المشاركين فيها جنوداً وقادة، والقيام بنقدهم علانية دون أدنى مجاملة ولعل ذلك ما جعل الدكتور عبد الرحمن الشهبندر - رغم الخلاف بينهما - يخص منير بالقول: «إن منير

الريس واحد من مجاهدي سوريا الأبرز عرف كيف يحيط اسمه بهالة من نور الجهاد الحق».

من ميدان الى آخر:

عندما وضعت الثورة السورية رحالها ربيع عـام ١٩٢٧، أخـذ كثير من رجالها يعودون الى حياتهم العاديـة، فيمـا غـادر آخـرون الـى المنفـى بانتظار عفو عن الأحكام التي أصدرها الانتـداب ضدهـم وأغلبهـا أحكـام بالإعدام، وواحد منها صـدر بحـق منير الريـس، وتداخـل نجيـب الريـس رئيس تحرير «المقتبس» الدمشقية لدى بعض زملائـه الصحـافيين، حيـث حصلوا على عفو خاص لمنير الريس دون أن يسجن أو يسلم بندقيته.

وبدأ منير الريس العمل في ميدان الصحافة الى جانب ابن عمه نجيب الريس «في المقتبس» ثم انتقل لاحقاً الى «القبـس» التـي خلفـت الأولـى لتكون ناطقة غير معلنة بلسـان الحركـة الوطنيـة السـورية وفـي الثلاثينـات عمل منير محرراً في صحيفة «الأيام» التي أصدرها نصـوح بـابيل، وكـان مراسلاً لجريدة «النهار» اللبنانية في دمشق...

إن الفصل الأهم في حياة منير الريـس الصحـافي، بـدأ مـع أواسـط الأربعينات، عندما أصدر جريدته «بردى» عـام ١٩٤٥، واستمرت حتـى أواخر الخمسـينات، حيـث صـدرت قوانيـن «تنظيـم الصحافـة السـورية» فاختفت صحف، كـانت «بـردى» مـن بينهـا، وبيـن أواسـط الأربعينـات وأواسط الستينات، قدم منير مسـاهمات هامـة فـي ميـدان الصحافـة منهـا اصداره إضافة الى «جريدة الوحدة العربية» التي صدرت في بعض فـترات

تعطيل «بردى»، كما أصدر مع بشير العـرف صـاحب «المنـار» ورئيـس تحريرها جريدة «اللواء» الدمشقية عام ١٩٢٥، وصار مديراً لها.

وقيّم نزيه الحكيم أواخر الستينات جهود منير الريس في ميدان العمل الصحافي بـالقول: «منـير الريـس رجـل قضـى ثلـث حياتـه فـي الصحافـة المناضلة، فاغلقت صحيفته عشرات المرات، وعـرف السـجون والمنـافي دفاعاً عن مثله الأعلى وعناداً في تأييد الحق».

من ثورة فلسطين الى العراق:

لقد تدخلت في تكويـن منير الريـس القضيـة الوطنيـة (فـي قطريهـا) السورية مع القضية القومية العربية، وهـو هـم وسـيطر علـى غالبيـة النخبـة العربية التي انتمى اليها، وبدا طبيعياً - والحال هكذا - أن يسـتجيب منـير الى نداء ثورة فلسطين الكـبرى عـام ١٩٣٦، وينظـم بالتعـاون مـع فـوزي القاوقجي حملة من المتطوعين السوريين واللبنانيين للمساهمة في كفـاح الفلسطينين ضد الانتداب البريطاني والمشروع الصهيوني.

وإضافة الى مسـاهمته فـي الإعـداد لتلـك الحملـة، فقـد شـارك فـي المعارك ومنها معركة «بلعا» أحد أهم معارك ثورة فلسطين، وقام بتغطيـة أحداث الثورة لصالح جريدة «الأيام» الدمشقية، قبل أن يغادر فلسطين مع أفواج المتطوعين في حملة فوزي القاوقجي عقب نداء الملـوك والزعمـاء العـرب فـي تشـرين الأول (نوفمـبر) ١٩٣٦ الداعـي الـى وقـف القتـال والركون الى جهود «صديقتنا» بريطانيا في معالجة القضية الفلسطينية.

وكان من الطبيعي، والرجل على ما فطر عليه، أن يتوجه الـى العـراق عندما نشبت الأزمة هناك بين الجيش والوصي على عرش العراق عبد الاله في ربيع

عام ١٩٤١، وتم تأليف وزارة رشيد عالي الكيلاني وفيها عدد من قادة وأعضاء «الحزب القومي العربي» الذي كان منير الريس قد أسسه سراً مع عناصر قومية عربية أواسط الثلاثينات، وكان بين سبعة هم أعضاء القيادة العليا المنتخبة للحزب بينهم كاظم الصلح، وفريد زين الدين، وواصف كمال، وقسطنطين زريق...

وساهمت التدخلات الأجنبية ولاسيما البريطانية، مضيفاً اليها ضعف مستوى الإعداد والأداء للقيادة العراقية الجديدة الى انهيار سريع لحكومة رشيد عالي الكيلاني مما دفع بمنير الريس مع عديد من الشخصيات القومية في العراق الى المغادرة الى ألمانيا حيث عاشوا سنوات المنفى الاوربي - الالماني حتى نهاية الحرب العالمية الثانية.

عودة الى الصحافة والحياة العامة:

وبعيد عودة الريس الى البلاد بقليل أصدر جريدته «بردى» وخاض بها ومعها معارك سياسية واجتماعية واسعة على قاعدة الاصلاحات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وتحقيق العدالة الاجتماعية والسعي الى الوحدة العربية، وعلى هذا النحو مضت سيرته في العقود التالية وصولاً الى تقاعده واعتكافه الحياة العامة أواخر السبعينات.

لقد قادت حياة الريس بتلاوينها المتعددة، واختلاطاتها على مدى عقود الى معايشة النخبة السياسية والاجتماعية في طول بلاد الشام والعراق وعرضها، حيث تعرف على النخبة العربية من قادة الأحزاب والجماعات ومن المستقلين، ومن القادة الحكوميين، وتعرف اضافة الى ما سبق على قادة عسكريين كبار...

وإضافة الى هؤلاء فقد عرف الريس الأوساط الشعبية في الريف والمدينة وفي البادية على السواء بل يمكن القول، أن منير الريس في هذا الجانب كان إحدى حلقات

الوصل بين النخبة والمجتمع السوري جامعاً بين انتمائه للنخبة وهموم الفئات الأوسع في مجتمع يتشكل في تطلعاته التحريرية الوطنية والديمقراطية...

ومنير الريس الذي دخل الحياة العامة من أوسع أبوابها لم يغلق بوابة بيته في وجهها، فتقل الحياة العامة الى داخل بيته، فحوله تباعاً لمراحل حياته واهتماماته ففي فترة النضال الوطني من أجل استقلال سوريا لم يعد منزله عن أن يكون مكاناً يخزن فيه سلاح وطني، أو يأوي مناضلين أو تعقد فيه اجتماعات ولقاءات وفي الفترة التي أعقبت الاستقلال تحول منزله الى مركز لنشاط اجتماعي – ثقافي – سياسي، ساهمت فيه بصورة أساسية زوجته السيدة ثريا الحافظ التي كانت من أنشط الوجوه النسائية السورية في ميدان العمل الاجتماعي والثقافي وهي التي أشرفت وساهمت في تأسيس عشرات الجمعيات السورية منذ أواخر العشرينات وحتى الستينات ومن بين ما أسسته السيدة ثريا الحافظ منتدى «سكينة»: الذي يعد أحد ملامح الحياة الثقافية في سوريا ما بين أواسط الخمسينات والستينات، والذي نظم جلسات ولقاءات لأهم الكتاب والمفكرين والمبدعين العرب على مدار عشر سنوات، وبصورة مؤكدة فإن وجود منير الريس الى جانب السيدة ثريا حافظ في هذا النشاط ربما كان من أهم عوامل نجاح نشاطها.

لقد ترك منير الريس إرثاً غنياً وتجربة واسعة لحياة انسانية حقا سجلت بعض ملامحها يوميات الحياة السياسية في سوريا ومذكرات الشخصيات التي عايشت تلك الفترة ثم المذكرات التي خلفها الريس عن جزء من حياته وتجربته في ثلاثة أجزاء تجمع ما بين الخاص والعام وما بين الحدث والتحليل في تطور المشرق العربي لأكثر من ستين عاماً.

نبيه العظمة:
رجل القومية والتغيير الجذري

حين يشار الى الرعيل الأول من رجالات الحركة القومية العربية في المشرق العربي، يبرز طليعة الأسماء اسم نبيه العظمة، وقد ارتبط اسمه بأهم أحداث المشرق العربي طوال خمسين عاماً بدأت مع بدايات القرن واستمرت حتى بعْد منتصفه عندما اعتزل العمل السياسي متفرغاً لحياة عادية وقد تجاوز حينها السبعين من عمره.

البدايات الأولى:

ولد نبيه العظمة في حي الشاغور بدمشق عام ١٨٨٦ وتلقى تعليمه الأولي ما بين دمشق وصنعاء في اليمن، ثم تابعه في الاعدادية العسكرية في استانبول حيث تخرج ضابطاً في الجيش وعلى نحو ما كان أقرانه من ضباط الجيش العثماني تنقل في المواقع المختلفة وكان منها ذهابه الى الحرب ضد الغزو الطلياني لليبيا والى حرب البلقان واشترك في حملة السويس إبان الحرب العالمية الأولى.

أتاحت له مكانته ومعرفته المختلفة ووطنيته أساساً أن يحتل مواقع مميزة في العهد الفيصلي للحركة العربية الأولى التي أقيمت بدمشق عندما

دخلها الأمير فيصل بن الحسين عام ١٩١٨ فتم تعيينه مراقباً على دمشق بمنزلة محافظ، كما تم انتخابه عضواً في جمعية العربية الفتاة، وعضواً في الهيئة المركزية لحزب الاستقلال حزب الأكثرية القومية الحاكمة في دمشق.

الطريق الى العمل القومي:

عندما دخلت القوات الفرنسية سوريا وأنهت العهد الفيصلي انتقل نبيه العظمة الى الأردن، وبعدها حرض الشريف حسين على ارسال أحد أبنائه ليقود الحركة السورية المناهضة للاحتلال الفرنسي لسوريا وعليه قدم الأمير عبد الله بن الحسين ليقوم بذلك بعد أن يجمع الأتصار والمتطوعين في الأردن ويدخل دمشق وفي تلك الفترة الانتقالية شارك نبيه العظمة في التكوين العربي للسلطة في الأردن ومن بين المسؤوليات التي احتلها منصب ناظر الداخلية بمرتبة وزير، لكن ذلك لم يكن هدفه وغاياته فاصتطدم وكثير من السوريين الذين كانوا يعولون على حركة الأمير عبد الله لدخول دمشق مع الأمير فقام الأخير بنفيه وبعض اخوانه الى الحجاز وقد تولى بعض المسؤوليات الادارية هناك وقضى بعدها سنوات متردداً ما بين عواصم المشرق العربي ومصر عاملاً من أجل مسائل قومية عدة منها التهيئة لثورة مسلحة في سوريا ضد الفرنسيين ومنها وساطة بين السعودية واليمن على تبعية منطقة عسير وبعدها استقر في فلسطين ليساهم في حركتها الوطنية والقومية المناهضة للانتداب الصهيونية ومشروعهما الاستعماري - الاستيطاني هناك وفي فلسطين شارك الى جانب آخرين منهم عزة دروزة وعادل العظمة في تأليف حزب الاستقلال وكان بين

الأحرار الفلسطينيين الذين اعتقلهم الانتداب في معسكر صلفتند منذ عام ١٩٣٦، فيما كان الاضطراب الستيني والذي نهضت بأعبائه سوريا في مواجهة الانتداب الفرنسي، مقدمة لمعاهدة العام ١٩٣٦ السورية - الفرنسية وتم انتخابه بعدها متدوباً للحكومة السورية في لواء اسكندرون الذي كانت فرنسا تستعد في مرحلة انتدابها على سوريا للتنازل عنه الى تركيا وسلخه من الخريطة العربية السورية مما جعل الرجل يترك مهمته احتجاجاً واعتراضاً على الخطوات الانتدابية والسياسات المتراخية التي كانت تتخذها الحكومة السورية - تحت الانتداب - في موضوع لواء الاسكندرون.

أسس مع عدد من رجالات الحركة القومية لجنة الدفاع عن فلسطين في سوريا ولبنان ومقرها الرئيس في دمشق ولها مكاتب في عدة مدن سورية ولبنانية وقامت اللجنة بالعديد من أنشطة الدعم لثورة فلسطين الكبرى عام ١٩٣٦ -١٩٣٩ وكان من بين أنشطته القومية الأخرى لنصرة القضية الفلسطينية عقده مؤتمراً عربياً عاماً من كل الأقطار العربية.

سجون ومنافٍ:

بعد الاعلان الفرنسي عن التراجع عن معاهدة ١٩٣٦ مع الحكومة السورية تحت الانتداب، اندفع نبيه العظمة الى مواقع المعارضة الأولى، وتم اعتقاله ومحاكمته مع وطنيين آخرين إضافة الى حكمين بالاعدام كان قد أصدرهما الانتداب بحقه سابقاً وحكمان آخران مدتهما ٤٠ عاماً سجناً ومثلها نفياً من البلاد وقضى نحو عشرين شهراً متنقلاً مع رفاقه في

سبع سجون موزعة ما بين سوريا ولبنان قبل أن تثمر تدخلات وضغوطات للدول العربية وملوكها على الفرنسيين لاطلاق سراح نبيه العظمة ورفاقه.

غادر العظمة سوريا الى تركيا وأقام هناك أربع سنوات من حياة المنفى وعاد الى دمشق عشية الاستقلال عام ١٩٤٦، ليقدم مساهمته في اقامة عهد وطني طالما عمل من أجله ويساعد في اقامة لبنات النظام الجديد الأساسية فأسندت اليه وزارة الدفاع لكنه سرعان ما استقال، كما استقال مرة أخرى من منصب أمين العاصمة السورية لعدم توافقه مع السياسة القائمة وسعيه لتحقيق نقلة انقلابية في الحياة السياسية السورية وعلاقات النخبة الحاكمة من أصدقائه المقربين.

إختلاف في إطار النخبة:

قادت نزعة التغيير لدى نبيه العظمة الرجل الى تشكيل الحزب الوطني الذي سرعان ما وجد له أنصاراً ومؤيدين في أنحاء كثيرة وواسعة في سوريا مما جعله رقماً مهماً في الخريطة السياسية غير أن موقف النخبة من نزعة التغيير التي كان يتبناها العظمة لم تتبدل وقد جاءت هزيمة حرب فلسطين ١٩٤٧ - ١٩٤٩ وما رافقها من فضائح عربية، ومنها ما حصل في سوريا وقد صارت تلك الفضائح على الألسنة فأعلن الرجل انهاء حياته السياسية في آذار (مارس) ١٩٤٩.

ومثل كثيرين من أبناء جيله الذين حلموا بالتغيير، راهن نبيه العظمة على نتائج الانقلاب العسكري الأول في سوريا الذي قام به حسني الزعيم عام ١٩٤٩، فعمل على انقاذ الوضع وتبنى وأخذ يعمل بصورة جدية من أجل وحدة سوريا والعراق، غير أن عدم الاستقرار السياسي، وتكرر

الظاهرة الانقلابية في سوريا دفعت به مثل كثيرين الى الابتعاد عن الحياة السياسية وغادر البلاد الى لبنان بعد الانقلاب الأخير للعقيد أديب الشيشكلي وبقي الرجل مقيماً في لبنان حتى قيام الوحدة السورية - المصرية فعاد الى دمشق معلناً تأييده للوحدة وزعيمها عبد الناصر واستمر على هذا النسق من تأييده للوحدة حتى بعد الانفصال وهو الرجل الذي قضى الشطر الأكبر من عمره في السعي من أجل القضايا العربية والأبرز فيها قضيتان «الوحدة وفلسطين» واللتان كانتا السبب في خراب علاقاته وتوترها حتى مع رفاقه الخلص من قادة الكتلة الوطنية وبينهم شكري القوتلي ومحاولته تأسيس منحى جديداً في سياسة سوريا الداخلية والعربية بتأسيس الحزب الوطني ومعارضته حكومات الكتلة الوطنية والديكتاتوريات العسكرية، وكذلك عهد الانفصال.

انكفأ نبيه العظمة بعد انفصال عرى الوحدة السورية - المصرية الى حياة الظل وعاش بعدها نحو عقد من الزمن قضاه مراقباً للحياة العامة مقتصراً في علاقاته على قدر محدود من الزمن صلات الأصدقاء والأهل حتى وافاه الأجل أواسط آب (أغسطس) ١٩٧٢ بدمشق وربما كان ذلك النمط من العيش تعبيراً عن الخيبة التي أصابت الرجل ليس في طموحاته وأهدافه القومية التي لم تتحقق وإنما في نزعة التغيير والبناء الحديث للدولة والمجتمع المستقلين وهو ما حاول القيام به مع أصدقاءه من النخبة الاستقلالية الحاكمة لكنهم كانوا يرفضون تلك النزعة وعلى أساسها اختلفوا !

نمر المصري: رحلة حياة الى الوطن

بصمت شديد مضى موكب نمر المصري، وكهدوء الموكب الجنائزي مضت السنوات الأخيرة في حياة بسيطة يحيطها الصمت والتأمل، لكن الأمر لم يكن على تلك الصورة بالكامل فقد كان فيه محطات للمراجعة، وأخرى للحوار مع الذات والآخرين وللبحث بالمستقبل بمقدار ما كانت الامكانيات الذاتية والموضوعية تسمح لرجل تجاوز الثمانين من العمر قضى أغلبها منشغلاً ومشتغلاً بالشأن العام وسط ظروف غاية في الصعوبة والقسوة لم يكن التشرد هو الأشد فيها.

بدايات، الدين، السياسة:

ولد نمر عبد الله المصري في مدينة اللد وسط فلسطين عام ١٩١١ وتلقى تعليمه الابتدائي فيها وانتقل لاحقاً للدراسة الثانوية في مدينة الرملة حيث أنهى دراسته هناك في عام ١٩٢٨ وفي مرحلة مبكرة من حياته أخذت تتبلور فيه الشخصية الاجتماعية المميزة وسط تفاعلات معقدة يختلط فيها الدين والسياسة الثقافة مع الأدب الى جانب اهتمامات أخرى وأكثر ما تجلى ذلك في تأسيسه مع رفاق له وفي مرحلة مبكرة من حياته «نادي الطلبة الأدبي» وهو أول نادي يتم تأليفه في اللد وقد اتبعه لاحقاً بأنشطة مماثلة.

غير أن المشوار الأبعد في حياة المصري كان اتصاله بالتعليم إذ كلفته جمعية الشبان المسلمين ادارة مدرستها «المدرسة العباسية» التي أنشأتها في الرملة ١٩٢٩ وظل يدير المدرسة ويشتغل في عداد معلميها حتى عام ١٩٤٧ وعلى مدى عشرين عاماً -إلا قليلاً- ساهم المصري في عمله التربوي في تعليم وتربية وتثقيف قطاع واسع من أبناء «الرملة» وقضاها، وقد لعب عدد من هؤلاء أدواراً هامة في نضال الحركة الوطنية القومية ضد الانتداب والصهيونية.

وفي شق آخر من المشوار الأبعد نشط نمر المصري مع مدرسين آخرين في مدارس «ادارة الأوقاف الاسلامية» من أجل تأليف نقابة للعاملين في تلك المدارس، فكان أن تحسنت مستويات المدارس والعاملين فيها، وعلى مدى سنوات كان الرجل «سكرتيراً» لتلك النقابة الممتدة فروعها في أنحاء فلسطين.

وربط المصري عمله التربوي - التعليمي مع نشاطاته النقابي، بنشاط سياسي - اجتماعي، فكان على مدى سنوات طويلة عضواً نشطاً وكادراً فاعلاً في جمعيات منها جمعية الشبان المسلمين، ومؤتمرات منها مؤتمرات الشباب واللجان القومية، والمؤتمرات الشعبية، ومؤتمرات التسلح الذي انعقد في نابلس عام ١٩٣١ وقد انتدبته «اللجنة التنفيذية لمؤتمر الشباب العرب» لزيارة دمشق عام ١٩٣٣ لتنسيق ومشاركة شباب المدينة في أنشطة الحركة الوطنية الفلسطينية ضد الانتداب.

ذهاب نحو الأعماق:

وسجلت سنوات ثورة فلسطين الكبرى ١٩٣٦ - ١٩٣٩ تطورات أبعد أثراً في حياة نمر المصري، فلم يعد خطيباً وداعياً ورجل تنظيم في صفوف الحركة الوطنية فحسب، وإنما الى جانب ذلك ربط نفسه بالعمل

العسكري للثورة بإتصاله مع القائد الشهيد حسن سلامة قائد المنطقة الوسطى التي كانت إقامة المصري الجغرافية في اطارها، وقد تكرر الأمر لاحقاً عندما اندفعت الحركة الشعبية الفلسطينية ناهضة ضد الانتداب ومشروع التقسيم عام ١٩٤٧، وكان نمر المصري وعائلته في عداد اللاجئين الفلسطينيين الذين استقروا في سوريا بعد سقوط اللد والرملة.

ولم يمنعه ضيق المنفى وظروفه عن متابعة نشاطاته، بل عمق فيه تلك المتابعة ووسع مداها، فعمل بعد استقراره في سوريا في التعليم وفي مؤسسة اللاجئين الفلسطينيين، وفي كثير من هيئات ومؤسسات م.ت.ف. التربوية والسياسية، وأسهم في أنشطة الجامعة العربية والمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم وبخاصة فيما اتصل بالقضية الفلسطينية وشؤون اللاجئين الفلسطينيين.

ونمر المصري الذي كان سكرتيراً للمكتب الاداري لـ«الاخوان المسلمين» في فلسطين عند تأسيس الجماعة في الثلاثينات، كان بين الكوادر التي أسست وقادت «حزب التحرير» عام ١٩٥٢ لكنه جمد نشاطه في الحزب إثر «خلافات داخلية»، ومثل كثيرين الذين عاشوا تلك التجارب انضوى المصري في الاطار الفلسطيني المولود عام ١٩٦٤ وهو م.ت.ف. حيث تم اختياره عضواً في المجلس الوطني أثناء دورته الأولى في القدس عام ١٩٦٤، وكان عضواً في غالبية دورات المجلس الوطني اللاحقة، وتم انتخابه عضواً في اللجنة التنفيذية لـ(م.ت.ف.) ورئيساً للدائرة السياسية لسنوات (١٩٦٦ - ١٩٦٩) ورافق التحولات الكبرى

في المنظمة من القدس الى القاهرة وعمان.

حياة وراء الأضواء:

ولأن حياة نمر المصري - كما يقول أنيس صايغ - فيها «سير بحث دائم» عن الديمقراطية والحق ونبذة لحياة التسلط والقمع والدكتاتورية في الحياة الحزبية والسياسية فقد غادر البنى الحزبية مبكراً وغادر الخط الرسمي المؤسساتي للمنظمة ووضع نفسه وامكانياته في خدمة القضية على أوسع مدى وأعمق أثر في البنى الفكرية والثقافية فكان ذا أثر في ولادة مركز الأبحاث الفلسطيني في بيروت عند تأسيسه عام ١٩٦٥، ووقف الى جانب إقامة مركز التخطيط التابع لمنظمة التحرير وكان بين العاملين الأوائل من مؤسسي الموسوعة الفلسطينية وواحداً من أبرز المستشارين فيها، بل يمكن القول أنه كان مستشاراً للقضية الفلسطينية كلها على ما في حياته من تشعب وتنوع في المعايشة والمعرفة بتفاصيل الحياة الفلسطينية والقضية.

وقضى نمر المصري نحو عقدين من السنوات خلف أضواء الحدث السياسي اليومي لكن ذاك لم يكن يعني أنه لايتابع الحدث بكل خلفياته وأبعاده، بل كان يتابع الحدث بصفته إنساناً حراً ومستقلاً في وقت تحولت فيه الأكثرية الى انتماءات تنظيمية «عصبوية» صار التنظيم فيها أهم من القضية والشعب، وعندما دعت الحاجة الآن لأن يتقدم نمر المصري وأقرانه ليقولوا كلمة في مجريات الحدث الفلسطيني لم يبخل الرجل، والذين عايشوا تجربة جبهة الإنقاذ «وما على ضفافها من تطورات سمعوا آراء وشهادات الرجل، وعرفوا فيه الشخص الذي كان

من الصعب عليه أن يعيش وهو يرى وطناً يذهب الى الأعداء، فغادر الحياة واهباً روحه وتجربته لوطن يسعى الى التحرر الى الحياة الكريمة فعلاً.

نجيب عازوري:
استشراف مبكر للمستقبل

عاش نجيب عازوري قسماً كبيراً من العمر خارج وطنه الصغير لبنان وبعيداً عن محيطه العربي، وبخلاف تلك الحقيقة فإن نجيب عازوري انشغل كلياً بالموضوع العربي في أبعاده الفكرية والسياسية والتنظيمية، وكان في كل ذلك نموذجاً فذاً لرجال عصره، عصر النهضة العربية الحديثة، التي وإن لم تحمل الثمار والنتائج المأمولة والمرجو الحصول عليها فإنها لم تكن مجدية، فهي تجربة على كل حال وفيها غنى يستحق التوقف عنده تأملاً ودراسة وتدقيقاً في تجربة كان من رعيلها أشخاص فيهم نجيب عازوري.

مقدمات أولى:

ولد نجيب عازوري في النصف الثاني من القرن الماضي (التاسع عشر) في بلدة «عازور» إحدى قرى «جزين» جنوب لبنان وهي منطقة كانت متصلة إدارياً بمنطقة فلسطين، وقد عاشت المنطقة جميعها المراحل الأخيرة من الحكم العثماني - التركي في واقع الفقر الواصل حد العدم والفساد والاضطهاد العام الذي طال المسلمين قبل المسيحيين الذين يتصل عازوري بأكثريتهم في لبنان وهم «الموازنة» وبصفة عامة كانت عوامل الفقر والاضطهاد الناجمة عن الفساد والخراب العثماني - التركي

بين العوامل الدافعة الى هجرة الشاميين من رعايا الدولة العثمانية في اتجاهين: الأول الى فلسطين ومصر، والثاني الى افريقيا وأمريكا.

تلقى عازوري تعليمه الأولي والثانوي في مدرسة «الفرير» ببيروت، وكانت واحدة من مؤسسات التعليم والثقافة التبشيرية الغربية التي استوطنت بقاع الديار الشامية وأخذت تتنافس فيمابينها من جهة ومع التعليم الرسمي من جهة أخرى، يساعدها في ذلك فساد التعليم العام وواقعه البائس، وساهم الوضع على ما فيه من اختلاطات في نهضة تعليمية - ثقافية، تجسدت - في واحدة من وجوهها - في تفتح «وعي سياسي» لدى النخبة المحلية في اتجاهين «حركة اسلامية - عثمانية» و «حركة قومية - عربية» وقد اقترب عازوري من الأولى بداية لكنه اختار واعياً الثانية، بل يمكن القول أنه كان أحد أبرز رجالاتها في المشرق العربي في بداية القرن العشرين.

انتقل نجيب عازوري الى باريس ليتابع دراسته العليا فيها، فدرس «العلوم السياسية» في جامعتها، وعندما عاد الى المشرق انضم الى سلك الوظيفة العامة، واحتل في السنوات ١٨٩٨-١٩٠٤ وظيفة «مساعد حاكم القدس» بمساعدة من عضوي «مجلس المبعوثان»، وقد اعتزل العمل الوظيفي بعد التجربة وانتقل متفرغاً الى ساحة العمل العام بإنشغالاته الفكرية - السياسية والتنظيمية، وامتدت الفترة زمانياً مابين استقالته عام ١٩٠٤ وحتى وفاته عام ١٩١٦، وفي تلك الفترة برزت محصلة ثقافة وخبرة ومعرفة ومعاناة نجيب عازوري وطموحاته العربية - التحررية.

فلسطين نموذجاً ومركزاً:

امتدت تجربة نجيب عازوري الحياتية جغرافيا فشملت البلاد الشامية ومصر وأوربا وبخاصة فرنسا لكن الأهم كـانت فيهـا تجربتـه الفلسـطينية التي أثرت في اتجاهين: رؤية الواقع بكل مافيه مـن أعمـاق وضفـاف، ثـم رسم طموحـات المستقبل على مافيهـا مـن آمـال استناداً الى ماعـايش وعرف.

وفلسطين كانت نموذجاً ومركزاً في تجربة عازوري وحياتـه، وفيهـا لاحظ البؤس الذي يلف حياة مواطنيه والفساد المعمم عليهـم مـن جـانب الادارة العثمانية ورجالاتها، كما عايش البدايات الأولى للهجرات اليهودية الاستيطانية الى الأراضي المقدسـة، وانطلاقـة المشـروع الاستعماري فـي المشرق العربي، وتواطؤ كبار الموظفين العثمانيين مع الحركة الصهيونيـة، أو تجاهلهم لها، وجهلهم بها - في أحسن الأحوال - بسبب انشـغالاتهم في أعمال النهب وفساد سلوكياتهم الادارية والأخلاقية.

لقد صـارت فلسـطين مركـزاً فـي «قلـب الوطـن العربـي» كمـا رآه عازوري، وكانت كذلك في تحديد إطار حركته الفكرية - السياسية التي أعقبت تفرغه للعمل العام، ومنها انطلق خطابـه السياسـي، وتجسـد ذلـك كله عملياً في كتابه «يقظة الأمة العربية» الصادر بالفرنسية في باريس عام ١٩٠٥، وفيه قدم وصفاً شاملاً لفلسطين وتاريخ الصراعات فيهـا، وفصـل فـي جغرافيتهـا وثرواتهـا واقتصاداتهـا وسـكانها مـبرزاً أهميـة نهضتهـم وكفاحهم الموحد كحالة نموذجيـة عربيـة فـي وجـه الأتـراك، ونـوه مـن خلال أحداث عاشها الى فظائع الحكم التركي التي أثقلت حياة الفلاحيـن

وجعلتهم ضعفاء في مواجهة الوافدين اليهود، وصاغ صورة التناقض بين واقعين بالقول: «من جهة يوجد الشقاق وعدم الانتظام والجهل والبؤس ومن جهة أخرى، يوجد الاتحاد والمركزية والجهة الموجهة بالفكرة الواحدة بناء على تصميم مرسوم سلفاً، ومن صورة فلسطين انطلقت صورة التناقضات والأهداف» لأن هذه المنطقة تصل بين ثلاث قارات وثلاثة بحار كانت على مدى عهود متفاوتة مسرحاً لأحداث سياسية أو دينية، قلبت مصير العالم بأسره.

نشاطات عازوري وأفكاره:

تعددت وتنوعت نشاطات عازوري التي تسببت في صدور حكم تركي بالإعدام عليه لكن الأبرز في نشاطاته السياسية، كان تأليفه أول حزب قومي عربي هو «جامعة الوطن العربي» والمؤسس - على الأغلب - عام ١٩٠٤، وتمت صياغة مبادىء الحزب في «النداء القومي» وكتبه نجيب عازوري، وصدر عن المؤتمر العربي الأول المنعقد في باريس عام ١٩٠٥، وجاء فيه «أن امبراطورية عربية أو اتحاداً كونفدرالياً للأقطار العربية، سيضمن ازدهار الملايين وسعادتهم ويضع حداً للاضطهاد الذي يمارسه الموظفون الأتراك، ويسمح ببعث الحضارة القديمة، التي آلقت العربية في القرون الوسطى. نريد بوحدتنا أن نحكم أنفسنا بأنفسنا، بلغتنا وحسب عاداتنا».

لقد جاء إعلان «جامعة الوطن العربي» بعد سنوات من الجهد التنظيمي الذي بذله عازوري وأضاف اليه في سياق الجهد عينه تنظيم المؤتمر القومي العربي الأول المنوه عنه، ثم شارك في تنظيم المؤتمر

العربي في باريس عام ١٩١٣ والذي شارك فيه كبار رجالات الحركة القومية العربية في بلاد الشام والعراق وأعضاء الجمعيات العربية، وفي خلال وجوده في القاهرة أسس محفلاً ماسونياً على غرار الكربوناري ذي الأهداف التحريرية الوطنية «محاولاً جمع الأمراء وأبناء العائلات العربية الكبرى والطلاب في فروع لهذا المحفل انتشرت في غالبية الأقطار العربية وكان ذلك تحت تأثير واضح من الحركة القومية الايطالية التي حققت وحدتها ومحاولة للتمثل بها».

وفي ميدان نشاطه الاعلامي - الدعاوي كان عازوري شخصية لامعة وهامة، إذ نشط بالكتابة في العديد من الصحف الفرنسية منذ العام ١٩٠٥ ثم طور نشاطه في هذا المجال، بأن أصدر مجلة «الاستقلال العربي» بين ربيع ١٩٠٧ وصيف ١٩٠٨ الناطقة بالفرنسية، وخلال إقامته في القاهرة تولى مهمة إدارة جريدة «مصر» اليومية.

إن نشاطات عازوري الأهم وانجازاته في الميدان الفكري كانت في دعوته الى التحرر القومي والاستقلال والى الوحدة العربية، وربط النضال من أجل الوحدة العربية بإجراء تغييرات شاملة وجذرية في الحياة العربية ومساهمتها في تطوير الحضارة الانسانية وفي مواجهة الغزو الاستيطاني الصهيوني لفلسطين وفي رؤيته الثاقبة لطبيعة المعركة المنتظرة بين العرب واليهود الصهاينة، والتي لم تكن قد وضحت بعد لكثيرين، وفي ذلك قال: «ظاهرتان هامتان، لهما نفس الطبيعة، بيد أنهما متعارضتان، لم تجذبا انتباه أحد حتى الآن، تتوضحان في تركيا الآسيوية أعني: يقظة الأمة العربية، وجهد اليهود الخفي إعادة تكوين مملكة اسرائيل، مصير هاتين

الحركتين أن تتعاركا بإستمرار حتى تنتصر إحداهما على الأخرى. وبالنتيجة النهائية لهذا الصراع يتعلق مصير العالم بأجمعه.

لقد صاغ نجيب عازوري كثيراً من الأفكار القيمة والجديدة في كتاباته الصحافية وفي مؤلفاته الأربعة وهي: «يقظة الأمة العربية» و«الوطن العربي»: دراسة معمقة للوضع الراهن.. و«الخطر اليهودي العالمي..» و«الدول الأجنبية ومسألة المقدسات المسيحية في الأرض المقدسة» ووحده الكتاب الأول المطبوع بالفرنسية في باريس عام ١٩٠٥ وصل الينا، ويبدو أن بقية مؤلفاته كانت هدفاً للإخفاء والاتلاف من جانب الحركة الصهيونية وتنظيماتها، وقد تأخرت ترجمة كتابه الوحيد الى العربية حتى وقت قريب وبقي الرجل مغموراً بكفاحه ونشاطه وأهدافه لعقود من السنوات.

ولعل مما كان له أثر عميق في بقاء عازوري مغموراً مدة طويلة أنه عاش في المنفى وكتب بلغته وجعله مسرحاً لنشاطاته في الوقت الذي ربط حياته كلها بوطنه وبمصيره المقبل، لكنه لم يصل كلية الى الناس الذين عمل من أجلهم فكرياً وسياسياً وتنظيمياً، وكان على وشك المساهمة في النضال المسلح لولا أن الموت خطفه وحال دون مشاركته في الثورة العربية الكبرى عام ١٩١٦.

يوسف العظمة: حكاية رجل شجاع

يكاد يجمع معاصرو يوسف العظمة الذين عايشوا اللحظات السياسية التي سبقت استشهاده في موقعة ميسلون غربي دمشق في مواجهة مع القوات الفرنسية الغازية لسورية على القول أن الرجل كان يخطو سريعاً نحو استشهاده. بل أن بعضهم ينقل عن الرجل عينه، أنه كان يدرك تلك اللحظة، وأنه ماضٍ في هذا الطريق، طريق الشهادة في مواجهة العدو الغازي في معركة غير متكافئة القوى، بل وخاسرة في كل الاحتمالات، لكنه ذهب فيها الى النهاية دون خوف أو تردد.

النشأة والبدايات:

ولد يوسف العظمة في العام ١٨٨٤، في مدينة دمشق لعائلة من الوجهاء الذين تقلد الكثير منهم مناصب في الدولة العثمانية، وكان منهم رجالات في الادارة والجيش العثماني وملاكون وحرفيون، وكان والد يوسف العظمة من العاملين في جهاز الادارة.

توفي الوالد مبكراً فعاش يوسف في كنف أخيه الأكبر عزيز العظمة الذي أشرف على تعليمه وتربيته وتنقل يوسف العظمة تلميذاً وطالباً في مدارس دمشق، حيث تلقى تعليمه الابتدائي، انتقل بعدها الى المدرسة الرشيدية العسكرية عام ١٨٩٣، ثم الاعدادية العسكرية بدمشق عام ١٨٩٧.

وانتقل العظمة بعدها الى استنبول ليدخل المدرسة الحربية في العام ١٩٠٠، فتخرج ضابطاً في سلاح الفرسان، وأخذ يصعد في سلم الرتب العسكرية العثمانية بعد تخرجه ملازماً في العام ١٩٠٣.

ويبدو أن نبوغه دفع به الى البروز في الميدان العسكري، فتم اختياره للمران برفقة القائد الالماني «ويتغرت باشا» أحد المشرفين على تدريب وتنظيم الجيش العثماني، ثم تنقل الى مواقع عسكرية مهمة بينها التدريب في مدرسة أركان الحرب في استانبول قبل أن يوفد في مهمة دراسية الى المانية في عام ١٩٠٩، في مدرسة الأركان حرب العليا لمدة عامين.

بين الجيش والسياسة:

وتسجل الفترة التي أعقبت تخرجه من المدرسة الحربية انفتاح خيارات الجيش والسياسة أمام يوسف العظمة، فقد تم تعيينه ملحقاً عسكرياً في المفوضية العثمانية في القاهرة، لكنه سرعان ماعاد الى السلك العسكري العامل في أعقاب قيام حرب البلقان عام ١٩١٢، فاشترك في الحرب على جبهة بلغاريا، وتنقل بعدها في معظم الجبهات العثمانية- التركية إبان سنوات الحرب العالمية الأولى وبخاصة في جبهتي رومانيا والقفقاس.

ودفعت نجاحات يوسف العظمة العسكرية وخبراته المتراكمة الى تقليده، منصباً عسكرياً رفيعاً في عام ١٩١٧، عندما تسلم منصب معاون أنور باشا المفتش العام للجيش العثماني ثم رئيس أركان حرب الفيلق الأول الذي كان يقوده يعقوب باشا، واستطاع الدفاع عن مضيق الدردنيل حتى نهاية الحرب.

في ظل الدولة العربية:

بعد قيام الدولة العربية في دمشق، استقال يوسف العظمة من الجيش التركي - العثماني، وغادر الى دمشق ليلتحق بالجيش العربي الفيصلي، وتنقل مابين بيروت دمشق، وبعد ترقيته الى رتبة عميد، جرى تعيينه رئيساً لأركان حرب القوات العربية، وأخذ يبرز بصفته أحد أبرز الوجوه العسكرية لحكومة دمشق، وأخذ يساهم في تنظيم وترتيب أوضاع قوات الدولة العربية، في حكومة الملك فيصل الأولى.

لقد أدت التطورات السياسية في البلاد من حيث التوجه الى تنمية وتقوية المؤسسة العسكرية، ومواجهة التهديدات الفرنسية لإخضاع سورية للإنتداب وفقاً لصيغة اتفاقية سايكس - بيكو الانكلو - فرنسية.

وكان من التجسيدات العملية لخط المواجهة العربية في التطورات السياسية، ميل المؤتمر السوري الى تعيين وزارة قوية تواجه تراخي الملك فيصل في مواجهة الاصرار الفرنسي على الانتداب واخضاع البلاد بالقوة العسكرية الفرنسية، وعليه استقالت وزارة الركابي، وتم تشكيل وزارة جديدة برئاسة هاشم الأتاسي هي الثانية والأخيرة في عهد الملك فيصل في سورية، وفي هذه الوزارة تم اختيار اثنين من الوزارء الشباب والطموحين الذين غالباً ماكان يتم وصفهم بـ«التشدد» و «التطرف» وهما يوسف العظمة وأنيطت به وزارة الحربية، وعبد الرحمن الشهبندر الذي تولى وزارة الخارجية.

وفي خلال الوقت القليل والضيق بين دخول العظمة الوزارة ومعركة ميسلون في تموز (يوليو) ١٩٢٠، كان على الوزير الشاب وادارته

مواجهة أعباء ومهمات كثيرة ومعقدة تداخل فيها الداخلي مع الخارجي، الأمني مع الدفاعي، السياسي مع العسكري، الاداري مع الفني - التنفيذي.. إنه بإختصار «الوضع المعقد للغاية» الذي كان على الحكومة العربية مواجهته وبخاصة وزارة الحربية ممثلة بوزيرها الشاب.

عالج العظمة في فترة وزارته القصيرة مختلف تلك الشؤون، ولاسيما في الجانب المتصل بمواجهة الأطماع الفرنسية ويورد معاصرو العظمة والمطلعون كثيراً من التفاصيل، المتصلة بدوره في دعم الأنشطة الشعبية المعادية للوجود الفرنسي في المناطق الغربية والساحلية في سورية ولاسيما ثورة الشيخ صالح العلي، لكن الأهم والأبرز كان موقفه من إنذار الجنرال الفرنسي غورو الذي أعلنه للملك فيصل وحكومته في دمشق.

صحوة التاريخ:

لقد حاول ممثلو التيار المعادي لإتفاق سايكس - بيكو وتجسيداته العملية، في الحكومة العربية بدمشق رفض إنذار الجنرال غورو القاضي بفرض الانتداب الفرنسي على سورية، وحل الجيش العربي غير أن هؤلاء خسروا أمام دعاة «التفاهم» مع الفرنسيين من أعضاء الحكومة وممثلي النخبة السائدة التي كان يمثلها بوضوح الملك فيصل، وقد كان كثير من هؤلاء يذهبون في «تقديراتهم» الى الزعم بأن الفرنسيين لن يذهبوا في خطوات عملية في فرض انتدابهم بالقوة على بلاد لاتقبل الانتداب بل ترفضه، غير أن خط تطور الأحداث أثبت سقوط تلك المزاعم وأن الاستعماريين الفرنسيين لن يتورعوا عن ارتكاب أي فعل في سبيل تحقيق أهدافهم في فرض سيطرتهم على سورية الأمر الذي جعل ممثلي التيار

المعادي لسياسة فرنسا اللجوء الى محاولة أخيرة تواجه الخطوات الفرنسية التي بدأت تتوالى بعد قبول حكومة الملك فيصل لإنذار غورو وتحركه نحو دمشق.

وكان في صلب «المحاولة الأخيرة» تلك إصدار الأوامر بوقف تسريح الجيش وإعادة ترتيب أوضاع ما تبقى منه، وتنظيم صفوف المتطوعين وتسليحهم ليخوضوا معركة الدفاع عن الوطن حتى لو كانت غير متكافئة وفيها اختلال واضح في ميزان القوى وتبع ذلك كله قرار وزير الحربية يوسف العظمة بالخروج الى مجابهة القوات الغازية خارج دمشق تاركاً وصية صغيرة لدى النفر القليل الذين قابلهم ليلة سفره وهي ابنته «أمانة في أعناقهم» وبينهم الملك فيصل وزميله وزير المعارف ساطع الحصري.

وخلال معركة غير متكافئة في ميسلون يوم ١٩٢٠/٧/٢٤، استشهد يوسف العظمة وكثير ممن كانوا معه بعد أن ألحقوا بالجيش الفرنسي خسائر ملموسة، وتركوا باستشهادهم عبرة وحكمة مؤداها أن ميزان القوى ليس بالضرورة هو العامل الأساسي والمقرر لمصائر البشر، وإنما الارادة السياسية والخبرة هي التي جعلت من الممكن إخراج الانتداب الفرنسي من سورية بعد نحو خمس وعشرين عاماً على واقعة ميسلون.

لقد قيم الكولونيل الفرنسي غورو رئيس أركان جيش الشرق شخصية يوسف العظمة وسلوكه بالقول «هذا الضابط الشاب تماماً كان عدواً شرساً لنا، وعلى رأس المتطرفين... لقد كان طموحاً جداً، وبما أنه سبق له، وعمل كمرافق لأنور باشا فقد كان يأمل أن يلعب دور رئيسه

السابق في سوريا، فقام منذ وصوله الى الوزارة بإعادة تنظيم الجيش الشريفي».

وقد أصاب الكولونيل الفرنسي في تقييمه السابق، لكنه نسي نقطة مهمة وهي تأكيد الروح الوطنية ومأثرة التضحية بالروح التي كان يتمتع بها يوسف العظمة وكذلك شجاعته التي لاحدود لها.

المصادر والمراجع الرئيسية

* جبران جريج. انطون سعادة. مؤسسة فكر للأبحاث والنشر - بيروت الطبعة الأولى ١٩٨٢.
* محمد كرد علي. خطط الشام. مكتبة النوري، دمشق. الطبعة الثالثة ١٩٨٣.
* الأعمال الكاملة (المقالات). عبد الرحمن الشهبندر. تقديم محمد كامل الخطيب. وزارة الثقافة، دمشق ١٩٩٣.
* خيرية قاسمية. الرعيل العربي الأول حياة وأوراق نبيه العظمة. رياض الريس للكتب والنشر. لندن. الطبعة الأولى ١٩٩١.
* نجيب عازوري. يقظة الأمة العربية. تعريب وتقديم أحمد أبو ملحم. المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت الطبعة الأولى (دون تاريخ نشر).
* الشهيد عز الدين القسام حياته وجهاده (أعمال ندوة) المستشارية الثقافية للجمهورية الاسلامية الايرانية بدمشق ١٩٩٢.
* مجموعة مؤلفين (أعمال مؤتمر) المصلح الاسلامي السيد محسن الأمين، المستشارية الثقافية للجمهورية الاسلامية الايرانية بدمشق. (الطبعة الأولى) ١٩٩٢.
* سميح شبيب. محمد علي الطاهر. الاتحاد العام للكتاب والصحافيين الفلسطينيين - شرق برس (قبرص) دون تاريخ نشر.

* الحزب السوري القومي الاجتماعي. انطون سعادة سيرة ريادة وشهادة. عمدة الاذاعة، (دون رقم طبعة) أول آذار ١٩٨١.
* عبد الحميد السائح (مذكرات) فلسطين لاصلاة تحت الحراب. مؤسسة الدراسات الفلسطينية بيروت الطبعة الأولى ١٩٩٤.
* أحمد قدري. مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى، وزارة الثقافة. دمشق. الطبعة الثانية ١٩٩٣.
* جوزيف الياس. تطور الصحافة السورية في مائة عام (١٨٦٥-١٩٦٥) جزءان. دار النضال بيروت الطبعة الأولى ١٩٨٢.
* أحمد عمر شاهين. موسوعة كتاب فلسطين في القرن العشرين. دائرة الثقافة م.ت.ف. الطبعة الأولى ١٩٩٢.
* جورج فارس (اعداد) من هم في العالم العربي (الجزء الأول: سوريا) مركز الدراسات السورية والعربية. دمشق ١٩٥٧.
* عبد القادر عياش. معجم المؤلفين السوريين في القرن العشرين. دار الفكر دمشق الطبعة الأولى ١٩٨٥.
* عبد اللطيف اليونس. ثورة الشيخ صالح العلي. وزارة الثقافة (دمشق) دون تاريخ نشر.
* هيئة تحرير الموسوعة. الموسوعة الفلسطينية (القسم العام في أربع مجلدات) دمشق الطبعة الأولى ١٩٨٤.
* بيان نويهض الحوت. القيادات والمؤسسات السياسية في فلسطين ١٩١٧-١٩٤٨. مؤسسة الدراسات الفلسطينية. بيروت ١٩٨١.

* فايز سارة. سعيد العاص حياته وكفاحه. وزارة الثقافة. دمشق (الطبعة الأولى) ١٩٩٣.
* زكي الأرسوزي. المؤلفات الكاملة. مطابع الإدارة السياسية. دمشق (الطبعة الأولى) ١٩٧٣.
* بندلي الجوزي. من تاريخ الحركات الفكرية في الإسلام. الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينين - جمعية الصداقة الفلسطينية السوفياتية. الطبعة الثانية (بيروت) ١٩٨١.
* لوتسكي. تاريخ الأقطار العربية الحديث. دار الفارابي (بيروت) الطبعة الثامنة ١٩٨٥.
* إحسان الهندي. كفاح الشعب العربي السوري. دراسة تاريخية عسكرية. منشورات ادارة الشؤون العامة والتوجيه المعنوي دمشق ١٩٦٢.
* أحمد حلمي العلاف. دمشق في مطلع القرن العشرين. (اعداد وتقديم) علي جميل نعيسة. وزارة الثقافة. دمشق ١٩٧٦.
* أدهم الجندي. تاريخ الثورات السورية في عهد الانتداب. مطبعة الاتحاد. دمشق ١٩٦٠.
* جورج انطونيوس. يقظة العرب (ترجمة) ناصر الدين الأسد وإحسان عباس. دار العلم للملايين بيروت الطبعة السابعة ١٩٨٢.
* حسن أمين البعيني. سلطان باشا الأطرش: مسيرة قائد في تاريخ أمة. منشورات لجنة الاعلام في الادارة المدنية في الجبل (لبنان) الطبعة الأولى ١٩٨٥.

* منير الريس. الكتـاب الذهبي للثـورات الوطنيـة في المشـرق العربي. الثورة السورية الكبرى. دار الطليعة بيروت الطبعة الأولى ١٩٦٩.
* جان داية. صحافة الكواكبي. مؤسسة فكر للأبحاث والنشر. بـيروت. الطبعة الأولى ١٩٨٤.
* أكرم زعيتر (يوميـات) الحركـة الوطنيـة الفلسـطينية ١٩٣٥-١٩٣٩. مؤسسة الدراسات الفلسطينية. بيروت. الطبعة الأولى ١٩٨٠.

المؤلف: فايز سارة

كاتب وصحافي عربي سوري

من مؤلفاته:

* الأحزاب والحركات السياسية في تونس (دمشق) ١٩٨٦.
* اللوبي الصهيوني في أوربا والولايات المتحدة (عمان) دار الكرمل، ١٩٨٩.
* الحركة العمالية الفلسطينية في مواجهة الاحتلال والاستيطان (نيقوسيا) شرق برس، ١٩٩٠.
* الأحزاب والقوى السياسية في المغرب (لندن) منشورات رياض الريس، ١٩٩٠.
* سعيد العاص، حياته وكفاحه (دمشق) وزارة الثقافة، ١٩٩٣.
* دراسات في الاسلام السياسي (دمشق) دار مشرق - مغرب، ١٩٩٤.
* الحركة الاسلامية في المغرب العربي. (بيروت) مركز الدراسات الاستراتيجية والبحوث والتوثيق، ١٩٩٥.

٢٠٠٠ ط١ / ٥ / ١٩٩٦



طبع في مطابع وزارة الثقافة

دمشق ١٩٩٦

سعر النسخة داخل القطر

١٧٥ ل.س

في الاقطار العربية مايعادل

٣٥٠ ل.س